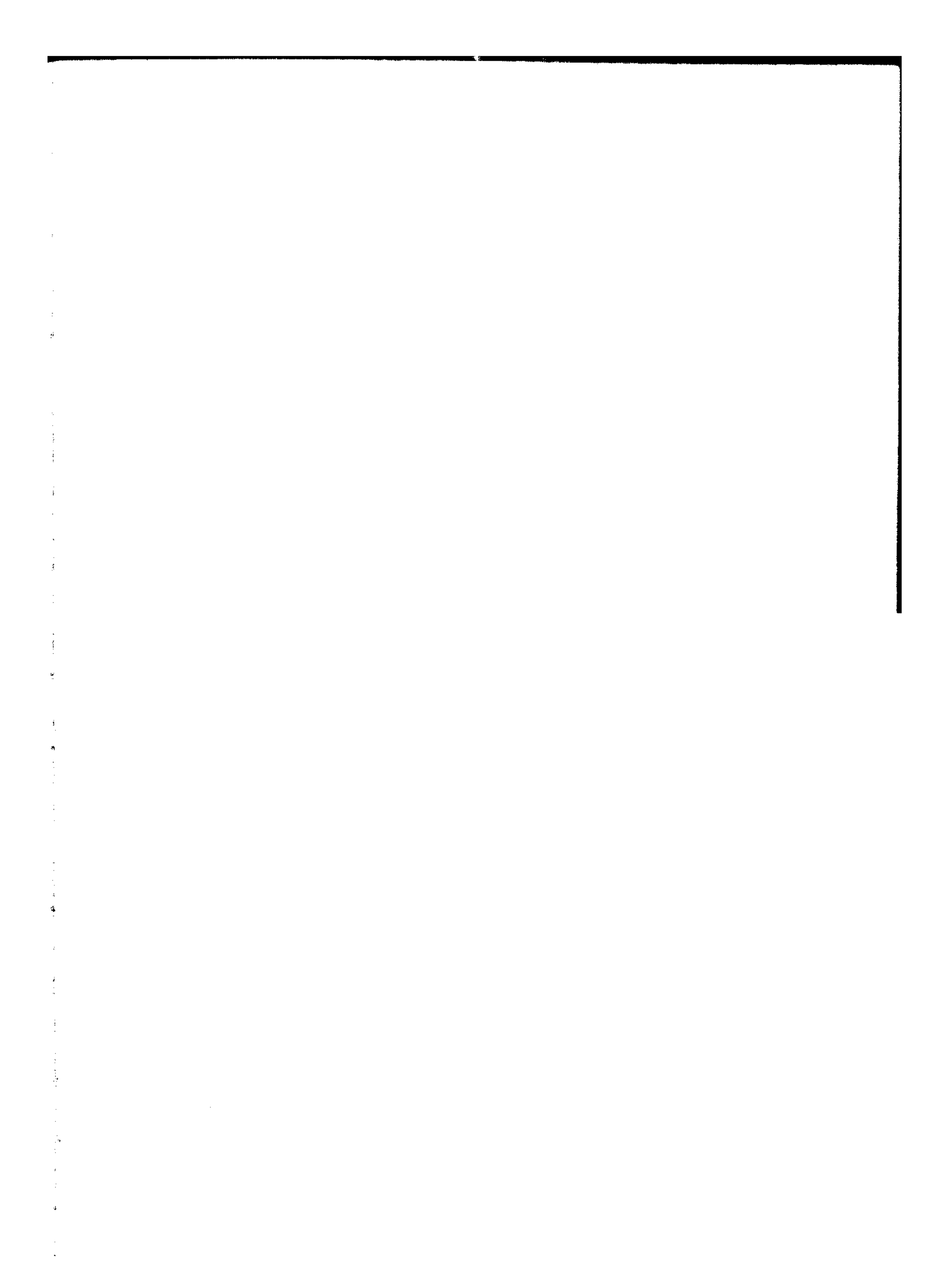
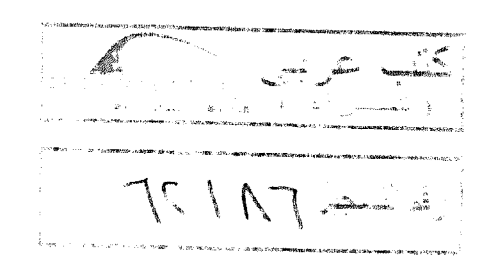
مكتبة مصر



حياة الحسين

عبد الحميد جوده السحار





مطبوعات مكتبة مصر

حيـاة الحسين

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى « الفجالة »
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى

- ١ -

انتشت نفوس المسلمين ، وأحسوا غبطة تشيع فى الصدور ، فقد انتصروا نصراً مبينا فى أول معركة خاضوا غمارها وأذلوا المشركين .

ورأى رسول الله ﷺ أن يبعث إلى المدينة نبأ انتصار المسلمين فى بدر ، فقدم زيد بن الحارثة وعبد الله بن رواحة ، فامتطى زيد العضباء ناقة رسول الله ، وامتطى عبد الله راحلته، وأغذا السير حتى إذا بلغا العقيق انطلق ابن رواحة إلى أهل العالية ، وانطلق زيد إلى أهل السافلة يبشران بما فتح الله على رسوله والمسلمين .

أشرف عبد الله على القوم فجعل ينادى على راحلته :

ـ يا معشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم .

وصاح صائح :

ـ أحقا يابن رواحة ؟

ـ إى والله .. وغدا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا .

وقدم زيد على ناقة رسول الله ﷺ ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته :

ـ قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البحترى بن هشام ، وأمية بن خلف ، وابنا الحجاج ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى

كثير .

وبانت الدهشة فى الوجوه ، فهؤلاء سادات قريش وصناديدها، وبدا كأن الناس لا يصدقون ما يسمعون ، فجعل بعضهم يقول :

ـ ما جاء زيد بن حارثة إلا فلا .

وغاظ المسلمين ذلك ، وقال رجل من المنافقين لأسامة وقد قابله وهو عائد من دفن رقية بنت الرسول :

ـ قتل صاحبكم ومن معه .

فأسرع أسامة إلى المصلى وهو فى قلق شديد ، وقال آخر لأحد المسلمين :

ـ قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون فيه أبدا ، وقد قتل عليه أصحابه ، قتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب .

ودخل أسامة المصلى وهو مضطرب ، فرأى أباه وقد غشيه الناس وهو يقول :

ـ قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .

فجذب أسامة أباه حتى إذا ما اختلى به وقال فى اضطراب :

ـ أحقا ما تقول ؟

فقال زيد فى توكيد :

ـ أى والله حقا ما أقول يا بنى .

فقويت نفس أسامة ، ورجع إلى ذلك المنافق فقال له :

ـ أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم ليضربن عنقك .

ـ إنما هو شىء سمعته من الناس يقولونه .

وأقبل رسول الله قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى ، ونزل على كثيب بين مضيق الصفراء والنازية ، فقسم النفل الذى أفاء

الله على المسلمين من المشركين على السواء ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

فقال لهم رجل من أهل بدر :

ــ وما الذى تهنئوننا به ؟ والله ما لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها .

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

ــ يا بن أخى أولئك الملأ .

وعاد البدريون إلى دورهم راضين ، وعاد علىّ مع النبى مغتبطا ، فقد صال وجال فى بدر وجدل صناديد المشركين ، وما دار بخلده أنه أوغر صدور الأمويين ، فما حصد رءوس رجالهم إلا سيفه ، فجرعهم الحزن المرير ، فيا للفتى الشاب ! ما اشتد ساعده حتى أذاق سادات الأمويين وأصهارهم المنون ، فبات بينه وبينهم ثارات ، وبذر فى صدورهم الغل والأحقاد .

وعاد إلى المدينة هدوؤها ، وجعل خاطر يطوف برءوس صحابة الرسول ﷺ ، أن فاطمة الزهراء أضحت فى الخامسة عشرة ، وإنه لشرف عظيم أن يصاهر صحابى النبى الكريم . وجال هذا الخاطر برأس الصديق ، فوطن العزم على مفاتحة النبى فى أمر هذه المصاهرة ، فدخل عليه يوما يخطب فاطمة ، فأطرق النبى قليلا ثم قال فى رقة :

ــ انتظر بها القضاء .

وجاء عمر يخطب الزهراء ، فقال له النبى فى رقة :

ــ انتظر بها القضاء .

وجاءت أسماء بنت عميس زوجة الصديق لعلى وقالت له :

ــ هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله ؟

فأحس كأنما قبض صدره ، فقد كان يتمنى أن يتزوج ابنة

عمه، وقال فى صوت فيه رعدة :

ـ لا .

ـ فقد خطبت ، فما يمنعك أن تأتى رسول الله ﷺ فيزوجك ؟

فقال على فى إنكسار :

ـ وعندى شىء أتزوج به ؟

ـ إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك . وجعل على يفكر فى الأمر ، إنه يريد أن يتزوج فاطمة ، ولكنه يحس رهبة ووجلا ، فما يجد فى نفسه الشجاعة ليفاتح النبى فى أمر ذلك الزواج ، فما يملك شيئا يستحلها به .

وأخيرا رأى أن يأتى رسول الله يخطب فاطمة ، فذهب إليه وهو يترجف رهبة ، ودخل عليه فما قعد بين يديه حتى أفحم ، فوالله ما استطاع أن يتكلم جلالة وهيبة :

وفطن النبى إلى اضطرابه فقال له :

ـ ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ .

فهم أن يتكلم ، ولكنه لم يجد لسانه فسكت وأطرق .

فقال له النبى ﷺ :

ـ لعلك جئت تخطب فاطمة ؟

ـ نعم .

ـ هل لك من شىء ؟

ـ لا .

ـ فأين درعك الخطمية ؟

ـ هى عندى .

ـ فأعطنيها .

ودخل النبى على فاطمة ، فقال لها :

ـ أى بنية ، إن ابن عمك عليا قد خطبك .. فماذا تقولين ؟

فأطرقت ثم قالت :

ـ كأنك يا أبت إنما أدخرتنى لفقير قريش .

ـ ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء .

ـ رضيت بما رضى الله ورسوله .

* * *

ومرت شهور ، وجاءت ليلة الزواج ، فبعث بالدرع إلى سوق بدر فبيعت بدراهم معدودة ، ووضعت الدراهم فى حجر النبى ، فقبض منها قبضة وقال :

ـ أى بلال أبتع لنا بها طيبا .

وخطب على خطبة ، وخطب النبى ﷺ خطبة ، وما تم العقد حتى دعا ﷺ بطبق بسر ، فوضع بين يديه ، ثم قال للحاضرين :

ـ انتبهوا ..

وجهز رسول الله فاطمة فى خميل وقربة ووسادة أدم حشوها أذخر ، وذهبت فاطمة إلى بيت الزوجية فى رفقة أم أيمن، فقعدت فى جانب البيت ، وعلى فى جانب آخر . وساد البيت هدوء وترقب ، فقد كان الجميع ينتظرون وفود الرسول ، وسمع طرق على الباب فهرعت أم أيمن تفتح للأب الكريم .

وجاء رسول الله ﷺ ورنا إلى فاطمة فى حنان ثم قال لها :

ـ ائتنى بماء .

فقامت تتعثر فى ثوبها من الحياء ، فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله وتلا قل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم قال لفاطمة:

ـ تقدمى ...

فتقدمت على استحياء ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال:

ـ اللهم إنى أعوذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

ـ ائتونى بماء .

فعلم على الذى يريد وملأ القعب ، فأتاه به ، فأخذه وصنع بعلى ما صنع بفاطمة ، ودعا له بما دعا لها ، ثم قال فى ابتهال :

ـ اللهم بارك فيهما وبارك لهما فى شملهما .

وسار النبى ﷺ ليخرج ، وتبعته أم أيمن ، فالتفت إلى على وهو على وصيد الباب قال :

ـ أدخل بأهلك باسم الله والبركة .

ـ ٢ ـ

استيقظت أم الفضل امرأه العباس من نومها وهى تحس انقباضا ، فقد رأت رؤيا أزعجتها . وفكرت فى أن تقص رؤياها على رسول الله ، ولكن كيف تقص عليه أنها رأت عضوا من أعضائه يقطع ويلقى به فى بيتها ؟ إن ما رأته يزعجها ، فعزمت على ألا تقص خبره على النبى . وأخذت تغدو وتروح ، وما تزال الرؤيا المفزعة ماثلة فى ذهنها تقلقها وتحيرها . حاولت أن تتناساها ، ولكنها كانت تحتل كل تفكيرها ، فلما لم تطق صبرا انطلقت إلى النبى ، وقالت له فى صوت أسيف :

ـ يا رسول الله ، رأيت كأن عضوا من أعضائك فى بيتى .

وأحست بعض الراحة ، فقد أفضت بما كان يقلقها كتمانه ، ورنت إلى النبى لترى أثر حديثها فى وجهه ، فإذا به يتطلق ويقول :

ـ خيرا رأيته . تلد فاطمة غلاما فترضعينه .

ودخل علىّ على فاطمة ، والبشر يترقرق فى محياه ، تملأ نفسه الغبطة التى تملأ كل زوج يرقب قدوم وليده الأول ، وأقبل

على الزهراء يلاطفها ، فنزلت السعادة بالدار الصغيرة التى ما كان بها إلا إهاب كبش كانت فراش الإلفين وقطيفة ، إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما ، وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما .

وحضرت ولادة فاطمة ، فهرع على إلى بيت النبى ، فقال عليه الصلاة والسلام لأسماء بنت عميس وأم سلمة :

ـ إحضرا فاطمة .

واستمر على فى قلقه ، حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخا ، انتشت روحه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، فقد كان يخشى على زوجه التى شحبت وانتابها هزال فى شهورها الأخيرة .

وجاء النبى ، فأخرج إليه المولود فى خرقة صفراء ، فرمى بها وقال :

ـ ألم أنهكم أن تلفوا المولود فى خرقة صفراء !

وأمر أن يلف فى خرقة بيضاء ، فلفوه وجاءوا به ، فقطع سرته وقال له :

ـ اللهم إنى أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم .

وفى اليوم السابع جاء رسول الله ﷺ وقال :

ـ أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

فقال على ، رجل السيف :

ـ حربا .

فقال رسول الله :

ـ بل هو حسن .

ونحر كبشا ، وأعطى القابلة فخذا ودينارا ، وقال :

ـ يا فاطمة ، إحلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة .

وأثلج صدر على فقد وهبه الله هبة عظمى : وهبه ذرية من نسل رسول الله . وانشرح صدر فاطمة بوليدها ، فجعلت ترقصه

وهى فرحانة وتقول له :

أشبه أباك يا حسن ... واخلع عن الحق الرسن

وأعبد إلها ذا منن ... ولا توالى ذا الإحن

وما انقضى شهر وبعض شهر حتى حملت فاطمة ثانية ، فكانت أم الفضل ترضع الحسن ، وفى يوم جاءت به إلى النبى ، فوضعته فى حجره فبال ، فضربت كتفه فنظر إليها عليه السلام وقال :

ـ أوجعت ابنى رحمك الله .

ومرت الأيام ووضعت فاطمة مولودها الثانى ، فجاء النبى وقال :

ـ أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

فقال على :

ـ حربا .

فقال رسول الله :

ـ بل هو حسين

***

وقف رسول الله يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره ، فرفعه النبى رفعا رقيقا ، فلما فرغ من الصلاة، وضعه فى حجره ، فكان يدخل أصابعه فى لحية النبى ، والنبى يضمه ويقبله فى حنان ويقول :

ـ اللهم إنى أحبه .

ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق ، فقالوا :

ـ يا رسول الله إنا رأيناك تصنع بهذا الصبى شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد .

ـ إن هذا ريحانتى ، وإن هذا ابنى سيد ، وعسى الله أن

يصلح به بين فئتين من المسلمين .

ونهض النبى وحمل الحسن وسار ، فقابله رجل فقال :

ـ نعم المركب ركبت يا غلام .

فقال النبى :

ـ ونعم الراكب هو .

وفى يوم خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة ، فمر على بيت فاطمة ، فسمع حسينا يبكى ، فمس بكاؤه شغاف قلبه ، فهرع إلى فاطمة وقال لها :

ـ ألم تعلمى أن البكاء يؤذينى ؟ .

***

ودارت عجلة الزمن دورة ، وقف رسول الله ﷺ فى مسجده يخطب ، وبينما هو يعظ المسلمين ، جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فلم يملك رسول الله نفسه بل نزل إليهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى حجره وقال :

ـ صدق الله ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

ـ ٣ ـ

عاد النبى ﷺ من حجة الوداع ، فكان يجىء كل صباح إلى دار فاطمة يقول :

ـ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

وفى ليلة من الليالى أحس رسول الله ﷺ أرقا ، فخرج من

الدار وذهب إلى أبى مويهبة وقال له :

ـ يا أبى مويهبة أسرج لى دابتى .

فذهب أبو مويهبة فى جوف الليل يسرج دابة رسول الله ، ثم قفل عائدا بها ، فقال رسول الله ﷺ :

ـ يا أبا مويهبة إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معى .

فركب رسول الله ﷺ ، ومشى أبو مويهبة حتى انتهيا إليهم ، فنزل رسول الله عن دابته ، وأمسك أبو مويهبة الدابة ، ونظر رسول الله إلى القبور وقال :

ـ السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

ورجع رسول الله ﷺ من البقيع ، فدخل على عائشة وهى تشتكى رأسها :

ـ وارأساه .

ـ بل أنا يا عائشة وارأساه !!

وجلس إلى جوارها وقال مداعبا :

ـ وما عليك لو مت قبلى ، فوليت أمرك وصليت عليك وواريتك .

ـ والله إنى لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك فى بيتى آخر النهار ! ..

فضحك رسول الله .

واستمر النبى يدور على نسائه ، وهو فى وجعه ، وكان يسأل:

ـ أين أنا غدا ، أين أنا غدا .

يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء ،

فخرج بين على بن أبى طالب والفضل بن العباس عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة .

واجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده ، فجاءت فاطمة تمشى لا تخطىء مشيتها مشية أبيها ، فلما رآها النبى قال :

ـ مرحبا بابنتى .

فأقعدها عن يمينه ثم سارها بشىء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فالتفتت إليها عائشة وقالت لها :

ـ خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين .

وقامت فاطمة فهرعت عائشة إليها وقالت :

ـ أخبرينى ما سارك ؟

ـ ما كنت لأفشى سر رسول الله .

وأتت فاطمة بالحسن والحسين إلى رسول الله فقالت :

ـ يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا .

ـ أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى .

ـ ٤ ـ

ومرت السنون ، وطوى الزمن أبا بكر وعمر وعثمان ، وصار على أمير المؤمنين ، واشتعلت نيران الحرب بين العراق والشام ، بين على ومعاوية ، ثم خرج الخوارج على علىّ فقتل منهم فى واقعة النهر خلق كثير .

وكانت قطام ابنة الشجنة فائقة الحسن ، رائعة الجمال ، لكن قلبها كان ينطوى على المقت لابن أبى طالب ، فقد قتل أباها وأخاها يوم النهر ، فكانت لا تفكر إلا فى قتل على والثأر لأهلها .

أخذت تعجم رجال قومها تيم الرباب ، فلم تجد فيهم من

ينهض بأمرها ، فانتظرت ترقب السوانح ، لعلها تجد فرصة تشفى غليل نفسها ، وفى يوم جاء ابن ملجم أصحابا من تيم الرباب فوجد قطاما عندهم ، فأسره جمالها فخفق لها قلبه ، وشغلته حتى كادت تنسيه حاجته .

وتمكن حب قطام من قلب ابن ملجم فتقدم يخطبها ، فقالت له..

ـ لا أتزوجك حتى تشفى لى .

ـ وما يشفيك ؟

ـ ثلاثة آلاف عبد وقينة ، وقتل على بن أبى طالب .

ـ هو مهرلك ، فأما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدينني .

ـ بل التمس غرته ، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ، ويهننك العيش معى ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها .

ـ فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على فلك ما سألت .

ـ إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك .

وأقام ابن ملجم عند قطام ومرت الأيام ولم ينفذ ما عزم عليه فاستولت عليها الوساوس وخشيت أن يحجم عما عزم ؟ فالتفتت إليه وقالت :

ـ لطالما أحببت المكث عند أهلك ، وأضربت عن الأمر الذى جئت بسببه .

ـ إن لى وقتا واعدت فيه أصحابى ولن أجاوزه .

وخرج ابن ملجم فلقيه رجل من أشجع من الخوارج فقال له :

ـ هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟

ـ وما ذاك ؟

ـ أتساعدنى على قتل على ؟

ـ ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئا إدا ، قد عرفت غناءه فى الإسلام ، وسابقته مع النبى ﷺ .

ـ ويحك ، أما تعلم أنه قد حكم الرجال فى كتاب الله ، وقتل أخواننا المصلين ؟ فنقتله ببعض أخواننا .

ـ وكيف نقدر ويحك على قتل أبن أبى طالب ؟

ـ نكمن له فى المسجد الأعظم فإذا خرج لصلاة الفجرفتكنا به وقتلناه وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا .

فلم يزل به حتى أجابه ، وذهب ابن ملجم وشبيب بين بجرة إلى قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة فقالا لها :

ـ قد أجمع رأينا على قتل على .

ـ فإذا أردتم ذلك فاتونى .

ووافى اليوم الذى تواعد فيه الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو ، فدخل ابن ملجم على قطام فقال لها :

ـ هذه اليلة التى واعدت فيها صاحبى أن يقتل كل واحد منا صاحبه .

وجاء شبيب فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان قد انتدب لقتله معهما . ودعت لهم بالحرير فعصبتهم به ، وأخذوا أسيافهم وانطلقوا إلى المسجد لاغتيال أمير المؤمنين .

الناس يصلون قريبا من السدة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره ، خرج على لصلاة الغداة ، فجعل ينادى :

ـ أيها الناس الصلاة الصلاة .

وتألق بريق ، وصاح صائح :

ـ الحكم لله يا على لا لك ولا أصحابك .

ثم تألق بريق سيف آخر ، وقال أمير المؤمنين :

ـ لا يفوتنكم الرجل .

وشد الناس على ابن ملجم من كل جانب حتى أخذوه ، وطرح رجل شبيبا فصرعة وجلس على صدره ، وأخذ السيف من يده ليقتله ، فرأى الناس يقصدون نحوه ، فخشى أن يعجلوا عليه فوثب عن صدره ، وخلاه ، وطرح السيف من يده ، ومضى شبيب فناته فخرج هاربا ، وفر مجاشع قبل أن يقع فى أيدى الناس ،

وحمل الإمام حتى إذا ما أستقر فى داره قال :

ـ على بالرجل .

فأدخل عليه ، فالتفت إليه وقال :

ـ أى عدو الله ، ألم أحسن أليك ؟

ـ بلى ..

ـ فما حملك على هذا ؟

ـ شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه.

ـ لا أراك إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلقه .

ونظر الأمام إلى الحسن وقال :

ـ أطيبوا طعامه ، وألينو فراشه ، فإن أعش فأنا ولى دمى ، إما عفوت وإما أقتصصت ، وإن مت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

وخرج الحسن بابن ملجم وهو مكتوف ، فخرجت أم كلثوم تبكى وتنتحب وتقول :

ـ يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين .

ـ ما قتلت أمير المؤمنين ، ولكن قتلت أباك .

ـ والله إنى لأرجو أن يكون عليه بأس .

ـ ولم تبكين إذا ، والله لقد أرهفت السيف ونفيت الخوف ، أوجبت الأجل وقطعت الأمل ، وضربت ضربة لو كانت بأهل الشرق لأتت عليهم .

ودخل الناس على الإمام يسألونه ، فقالوا :

ــ يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن فقدناك ــ ولا نفقدك ــ أنبايع الحسن ؟

ــ لا آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر .

فقال رجل من القوم :

ــ ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟

ــ لا ولكن أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ .

ــ فماذا تقول لربك إذا أتيته ؟

ــ أقول : اللهم إنك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ، ثم قبضتني وتركتك فيهم ، فإن شئت أفسدتهم ، وإن شئت أصلحتهم..

ثم دعا الحسن والحسين فقال :

ــ أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا ؛ واعملا بما في الكتاب ، ولا تأخذكما في الحق لوم لائم .

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال :

ــ هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟

ــ نعم .

ــ فإني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرا دونهما .

والتفت إلى الحسن والحسين وقال :

ــ أوصيكما به ، فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .

ووهن أمير المؤمنين ، وراح الرجل العظيم يجود بأنفاسه ، فخشي أن يطيش الغضب بعقول بنيه ، فقال لهم :

ـ يا بنى عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين . قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتلن إلا قاتلى .

ـ ٥ ـ

خرج عبد الله بن عباس إلى الناس ، وقد بان فى وجهه الحزن العميق ، فشخص الناس اليه فقال فى صوت متهدج :

ـ إن أمير المؤمنين عليه السلام توفى ، وقد ترك خلفا إن أحببتم خرج اليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد .

فبكى الناس وقالوا :

ـ بل يخرج إلينا .

فخرج الحسن وعليه ثياب سود ، فقال وهو يغالب دمعه :

ـ قد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون ، لقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ فيسبقه بنفسه وقد كان يوجهه برايته فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفى فى الليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ، والتى توفى فيها يوشع بن نون ، ولا خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه أراد أن يبتاع بها خادما لأهله .

ثم خنقته عبراته ، فبكى وبكى الناس معه ، ثم قال :

ـ أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير .

فقال قيس بن سعد :

ـ أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين..

فقال الحسن :

ـ تبايعون لى على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت .

فلما سمعوا ذلك ارتابوا وأمسكوا أيديهم ، فإنهم يحسون نفور الحسن من القتال ، فمن يدريهم أنهم لو بايعوه على ذلك لا يسالم معاوية من غده ؟ وانطلق الناس إلى الحسين ، فلما أتوه قالوا :

ـ ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام .

ـ معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حيا .

فانصرفوا إلى الحسن فلم يجدوا بدا من بيعته على ما شرط عليهم .

وبعث الحسن إلى ابن ملجم ، فقال للحسن :

ـ هل لك فى خصلة ، إنى والله ما أعطيت عهدا إلا وفيت به، إنى كنت قد أعطيت الله عهدا عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بينى وبينه ، ولك الله على إن لم أقتله ، أو قتلته ثم بقيت ، أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك .

ـ أما والله حتى تعاين النار فلا .

وقدمه ليقتل ، فقال عبد الله بن جعفر :

ـ دعونى حتى أشفى نفسى منه .

فقطع يديه ورجليه ثم قتله ، فأخذه الناس فأدرجوه فى بوارى ثم أحرقوه بالنار .

وكتب الحسن إلى معاوية :

(من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان .

أما بعد فإن الله بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين فأظهر به

الحق ، وقمع به الشرك ، وأعز به العرب عامة ، وشرف به قريشا خاصة ، فقال : وإنه لذكر لك ولقومك فلما توفاه الله تنازعت العرب الأمر من بعده ، فقالت قريش نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه ، وعرفت العرب لقريش ذلك ، وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ما أنصفتنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدين ، وسابقة فى الإسلام ولا غرو إلا منازعتك إيانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثر لك فى الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله معروفه أن لا يؤتينا فى هذه الدنيا شيئا ينقصنا عنده فى الآخرة .

إن على لما توفاه الله ولانى المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ، وانظر لامة محمد ﷺ ما تحقن به دماءها ، وتصلح به أمرها والسلام)

وبعث بذلك الكتاب الذى يستشف منه نفسيته المسالمة مع رسولين ، فقدما على معاوية ، فدعواه إلى بيعة الحسن ، فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

(أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده، فصرحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر وأبى عبيدة الأمين وصلحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك ، إن أجنة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار وذو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله وأخشاها له، وأقواها على الأمر فاختاروا أبا بكر ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى أبى بكر ، والحال اليوم بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت إنك أضبط لأمر الرعية وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جمع الفىء

لسلمت لك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوما ، فطالب الله بدمه ، ومن يطلبه الله فلن يفوته ، ثم ابتز الأمة وفرق جماعتها ، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم فى الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم . ثم أقبل إلينا لا يدعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا ، فحاربناه وحاربنا حتى صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تصلح عليه الأمة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا وعليه مثله وعلينا مثله على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت وخلعاه ، فوالله ما رضى بلا حكم ولا صبر لأمر الله ، فكيف تدعونى إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك والسلام) .

ودعا معاوية رسولى الحسن وقال لهما :

ـ إرجعا فليس بينى وبينكم إلا السيف .

وقفلا عائدين إلى العراق فلما دخلا على الحسن قالا له :

ـ إن الرجل سائر إليك فابدأه بالمسير حتى تقاتله فى أرضه وبلاده وعمله ، فإما أن تقدر أنه ينقاد لك فلا والله حتى يرى منا أعظم من صفين .

فقال الحسن :

ـ أفعل .

وتذكر الدماء التى سالت فى صفين ، فبغض أن يسوق الناس إلى الموت ، فقعد عن الخروج .

وفكر معاوية فى أن يستميل الحسن فكتب اليه : (قد علمت أنى أطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذا الأمة تجربة ، وأكثر سنا ، فأنت أحق أن تجيبنى إلى هذه المنزلة التى سألتنى ، فادخل فى طاعتى ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من المال

بالغا ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أى كور العراق شئت معونة لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها إليك فى كل سنة ، ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى فى أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء والسلام) .

فلم يكتب الحسن ردا ، فقد راح معاوية يمنيه الدنيا ، وما كان الحسن يطلب الدنيا ، إنه كان يخشى إهراق دماء المسلمين وذلك ما جعله يحجم عن أن يقود الجيوش لقتال معاوية وأهل الشام ، وعاد معاوية يكتب إليه يمنيه ويهدده ويخوفه أصحابه :- أما بعد فإن الله يفعل فى عباده ما يشاء ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدى رعاع الناس ، وأيس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتنى وفيت لك بما وعدت وأجرت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

وإن أحدا أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيا
ولاتحسد المولى إذا كان ذاغنى ولا تجفه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها والسلام)

فأجاب الحسن : (أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك تذكر فيه ما ذكرت ، وتركت جوابك خشيةِ البغى عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله ، وعلى إثم أن أقول فأكذب والسلام)...

قرأ معاوية الكتاب ، فرأى أن يجمع جنده فكتب إلى عماله (السلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤونة عدوكم وقتله خليفتكم ، إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلى بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله ، فنزل أصحابه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب

أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا ، بجهدكم وجندكم ، وحسن عدتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغى والعدوان والسلام عليكم ورحم الله وبركاته)

اجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصدا العراق ، وبلغ الحسن خبر مسيره فاستاء فإنه لا يريد أن يقود الناس إلى قتال ، واقترب معاوية من العراق ، فتحرك الحسن وبعث حجر ابن عدى فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير .

ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس ، فلما اجتمعوا خرج إليهم وقد تمثلت فى ذهنه صورة خذلانهم لأبيه لما جاء صريخ محمد بن أبى بكر من مصر ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ أما بعد ، فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرها ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ، ونرى وترون .

وظهر من قوله أنه يتخوف خذلان الناس ، فلما سكت اتضح أنهم خاذلوه ، فسكتوا فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف فلما رأى ذلك عدى بن حاتم قام وقال :

ـ أنا ابن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام لا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة ، فإذا جد الجد فروا غون كالثعالب . أما تخافون مقت الله ولا عيبتها وعارتها ؟ !

ثم استقبل الحسن بوجهه وقال :

ـ أصاب الله بك المراشد ، وجنبك المكاره ، ووفقك لما تحمد وروده وصدوره قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهى إلى معسكرى فمن أحب أن يوافينى فليواف .

ثم مضى لوجهه ، فخرج من المسجد ، ودابته بالباب ، فوضع رجله فى الركاب ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه .

وقام قيس بن سعد ، ومعقل بن قيس ، وزياد بن صعصعة فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم وكلموا الحسن بمثل كلام عدى ، فقال لهم الحسن :

ـ صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاءوالقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا .

ونشط الناس للخروج ، فانطلقوا إلى النخيلة ينتظرون وفود أمير المؤمنين

ـ ٦ ـ

دخل الحسن على رجل يجود بنفسه ، فعاين ما يقاسيه من الكرب ، فأحس يدا تعصر قلبه ، فغمغم :

ـ إن امرا هذا آخره لجدير بأن يزهد فى أوله ، وإن أمرا هذا أوله لجدير أن يخاف آخره .

وخرج إلى العسكر ، فالفى ألوف الرجال ينتظرونه ، فخرج فى عسكر عظيم وعدة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس فقال له :

ـ يابن عم ، إنى باعث إليك اثنى عشر ألفا من فرسان العرب وقراء مضر الرجل منهم يريد الكتيبة ، فسر بهم وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدنهم من مجلسك

فإنهم بقية ثقات أمير المؤمنين ، وسر بهم على شط الفرات حتى تقطع بهم الفرات حتى تصير بمسكن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك ، فإني عل أثرك وشيكا ، وليكن خبرك عندي كل يوم ، وشاور هذين (قيس بن سعد وسعيد بن قيس) ، وإذا لقيت معاوية ، فلا تقاتله حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس .

وسار عبيد الله بن عباس معه ، فجعل أصحاب الحسن الذين وجههم معه يتسللون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات ، فكتب عبيد الله إليه : (أما بعد فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد على عليه السلام ، فشمر للحرب وجاهد عدوك ، وقارب أصحابك ، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه ، ووال أهل البيوتات والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ، وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا فى حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ولك فى ذلك سعة إذا كنت محاربا ما لم تبطل حقا ، واعلم أن عليا أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه أسى بينهم فى الفىء ، وسوى بينهم فى العطاء فثقل عليهم ، واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ، فلما وحد الرب ومحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز فى الدين إلا الأتقياء الأبرار توسموا بسيما الصالحين لتظن المسلمون بهم

خيرا ، فما زالوا حتى أشركوهم فى أماناتهم وقالوا حسابهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلا غيا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتا ، فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفا ، فإن عليا لم يجب إلى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب ، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ، ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام) .

وسار الحسن بمن معه حتى نزل ساباط ، وجاء الليل فنظر إلى عسكره وأطرق وبان فى وجهه هم ثقيل ، إنه يخشى أهراق دماء المسلمين ، وإنه يخشى أن يسأله الله فيم أهرق دماءهم ، وأمسى طول ليله ينظر فى أمره ، فلما أصبح الصباح نادى فى الناس :

ـ الصلاة جامعة .

فاجتمعوا ، فصعد المنبر فقال :

ـ الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا اله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمدا رسول الله أرسله بالحق وائتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله .. أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله منه وأنا أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدا له بسوء ولا غائلة ، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة ، إلا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله .

ثم نزل ، فعلا وجوه الناس وجوم ، ونظر بعضهم إلى بعض

وقالوا :

ـ ما ترونه يريد بما قال ؟

ـ نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل .

وثارت ثائرة الناس فشدوا على فسطاطة فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، ثم شد عليه رجل فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا عنه من أراده ، ولاموه ، فقال :

ـ ادعوا لى ربيعة وهمدان .

فدعوا له فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، وانطلق ، فلما مر فى مظلم ساباط قام إليه جراح بن سنان وبيده معول ، فأخذ بلجام فرسه وقال :

ـ الله أكبر يا حسن ، أشرك أبوك ثم أشركت أنت .

وطعنه بالمعول ، فوقعت فى فخذه فشقته ، وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه فخرا جميعا إلى الأرض فوثب رجل ونزع المعول من يد جراح فخضخضه به ، وأكب آخر عليه ، فقطع أنفه ، ثم أخذا له الآخر فشدخا رأسه ووجهه حتى قتلوه .

وحمل الحسن على سرير إلى المدائن ، فقام بها يعالج نفسه ، وجاء الحسين وعبد الله بن جعفر فقال لهما الحسن :

ـ إنى قد كتبت إلى معاوية فى الصلح وطلب الأمان .

فثار الحسين وقال :

ـ نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة على !

ـ اسكت فأنا أعلم بالأمر منك .

وأقبل معاوية حتى نزل قرية يقال لها الحيوضة بمسكن وأقبل

عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه . فلما كان من غد ، وجه معاوية بخيل إلى عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردهم إلى معسكرهم . فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلنى فى الصلح وهو مسلم الأمر إلى ، فإن دخلت فى طاعتى الآن كنت متبوعا ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتنى الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك فى هذا الوقت نصفا ، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

فأقبل عبد الله إليه ليلا ، فدخل عسكر معاوية ، فوفى له بماوعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبد الله أن يخرج فيصلى بهم، فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدوه ، فصلى بهم قيس ابن سعد ثم خطبهم فثبتهم ، وذكر عبيد الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدو فأجابوا بالطاعة وقالوا له :

ـ انهض بنا إلى عدونا على اسم الله .

فنهض بهم وخرج إلى بسر بن أرطأة ، فصاح :

ـ ويحكم !! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم ؟

فقال قيس بن سعد لأهل العراق :

ـ اختاروا إحدى اثنتين : إما قتال مع غير إمام ، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال !

ـ بل نقاتل بلا إمام .

فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم ، فكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعوه ويمنيه ، فكتب إليه قيس :

ـ (لا والله لا تلقانى أبدا إلا بينى وبينك الرمح) .

فكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه : (أما بعد فإنما أنت يهودى ابن يهودى تشقى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وغدرك وإن ظهر أبغضهم اليك نكل بك

وقتلك ، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ، فأكثر الجذ وأخطأ المفصل فخذله قومه ، وأدركه يومه فمات بحوران طريدا غريبا والسلام

فكتب إليه قيس بن سعد بن عبادة : (أما بعد فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت الإسلام كرها ، وأقمت فيه فرقا ، وخرجت منه طوعا ، ولم يجعل الله لك فيه نصيبا ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث نفاقك ، ولم تزل حربا لله ولرسوله ، وحزبا من أحزاب المشركين ، وعدوا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده ، وذكرت أبى لعمرى فما أوتر إلا قوسة ، وما رمى إلا غرضه فشغب عليه من تشق غباه ، ولا تبلغ كعبه ، وزعمت أنى يهودى ابن يهودى ابن يهودى . وقد علمت وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ، وصرت إليه ، والسلام) .

فلما قرأ معاوية كتاب قيس غاظه ، وأراد إجابته فقال له عمرو :

ـ مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشدمن هذا ، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس ، فأمسك عنه .

واعتزل قيس فى أربعة آلاف فارس ، وبعث معاوية عبد الله ابن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح فدعوه ، فزهداه فى الأمر ، وما كان الحسن فى حاجة لمن يزهده ، وأعطياه ما شرط معاوية ، وأن لا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة على بمكروه ، ولا يذكر على إلا بخير ، وتم الصلح بين معاوية والحسن ، فانطلق الحسن إلى الكوفة وأكابر أصحابه يلومونه ويبكون إليه جزعا مما فعل .

سار معاوية حتى نزل النخيلة ، وأقبل الحسن فبايعه ، ومال عمرو بن العاص على معاوية فقال له :

ـ مر الحسن بن على أن يخطب ، فإنه حديث السن عيى ، فلعله يتلعثم فيتضع فى قلوب الناس .

فطلب معاوية من الحسن أن يخطب فامتنع ، فناشده أن يفعل فوضع له كرسى ، فجلس عليه فقال :

ـ أما بعد أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، إلا أن أكيس الكيس التقى ، وإن أعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إما أن يكون أحق به منى، وإما أن يكون حقى تركته لله عز وجل ولاصلاح أمة محمد ﷺ ، وحقن دمائكم !

ثم التفت إلى معاوية وقال :

ـ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .

فتغير وجه معاوية ، والتفت إلى عمرو وقال فى غيظ :

ـ هذا من رأيك .

ـ ٧ ـ

أرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول :

ـ على طاعة من تقاتل وقد بايعنى الذى أعطيته طاعتك ؟ !

فأبى قيس أن يلين له ، فبعث إليه معاوية سجلا قد ختم إليه فى أسفله فقال :

ـ اكتب فى هذا السجل ما شئت فهو لك .

قال عمر لمعاوية :

ـ لا تأته هذا فقاتله .

ـ على رسلك فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام ، فما خير العيش بعد ذلك ، وإنى والله لا أقاتله أبدا حتى لا أجد من قتاله بدا .

فلما وصل إلى سعد ذلك السجل ، اشترط ابن قيس فيه له ولشيعه على الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية فى سجله ذلك مالا .

وجىء بقيس ليبايع ، فقال قبل أن يدخل على معاوية :

ــ إنى حلفت أن لا ألقاه إلا بينى وبينه الرمح أو السيف .

فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه ، ودخل قيس ليبايع فأقبل على الحسن فقال :

ــ أفى حل من بيعتك ؟

ــ نعم .

فألقى له كرسى ، وجلس معاوية على سرير والحسن معه ، فقال له معاوية :

ــ أتبايع يا قيس ؟

ــ نعم .

ووضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره وأكب على قيس حتى مسح يده على يده ، وما رفع إليه قيس يده .

وبلغ الخوارج نزول معاوية بالنخيلة فقالوا :

ــ قد جاء الآن ما لا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه .

فأقبلوا حتى دخلوا الكوفة ، فأرسل إليهم معاوية خيلا من خيل أهل الشام ، فكشفوا أهل الشام ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج فقال الحسن :

ــ سبحان الله ، تركت قتالك وهو لى حلال لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ وأرسل معاوية لأهل الكوفة :

ــ لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم ..

فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم ، فقالت لهم الخوارج :

ـ ويلكم ، ما تبغون منا ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ، دعونا حتى نقاتله ، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا .

ـ لا والله حتى نقاتلكم .

ـ رحم الله إخواننا من أهل النهر ، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة .

وقاتل أهل الكوفة الخوارج حتى قتلوهم ، وأطمأن معاوية ، فجمع الناس فخطبهم :

ـ ما أختلف أمر أمه بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها .

ثم أنتبه وندم فقال :

ـ إلا هذه الأمة ، يا أهل الكوفة ، أترانى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكننى قاتلتكم لأتامر عليكم وعلى رقابكم ، وقد أتانى الله ذلك وأنتم كارهون . إلا أن كل مال أو دم أصيب فى هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمى هاتين ، ولا يصلح الناس إلا بثلاث :

إخراج العطاء عند محله ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغزو العدو فى داره ، فإن لم تغزوهم غزوكم .

وذكر عليا فنال منه ، فقام الحسين ، وكان جالسا تحت المنبر ، ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ثم قام فقال :

ـ أيها الذاكرون عليا ، أنا الحسن وأبى على وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمى فاطمة وأمك هند ، وجدى رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتى خديجة وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا والأمنا حسبا وشرفا قديما وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا .

فقالت طوائف من أهل المسجد :

ـ آمين .

ودخل معاوية الكوفة بين يديه خالد بن عرفطة ومعه حبيب ابن حماد يحمل رايته ، وجاء المسيب بن نجية للحسن فقال له :

ـ ما ينقضى عجبى منك ، بايعت معاوية ومعك أربعون ألفا، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهدا ظاهرا أعطاك أمرا فيما بينك وبينه ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أراد بها غيرك .

ـ فما ترى ؟

ـ أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك .

ـ يا مسيب ، إنى لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض فارضوا بقدر الله وقضائه .

ودخل الحسن إلى الكوفة ، وجلس بفناء داره وعنده رهط ، فدخل عليه رجل فقال :

ـ السلام عليكم يا مذل المؤمنين .

ـ وعليك السلام .

ونزل الرجل فعقل راحلته ، ثم أتاه فجلس إليه فقال له الحسن :

ـ كيف قلت : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، لم جرى هذا منك إلينا ؟

ـ أنت والله بأبى وأمى أذللت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك فقد جمع الله عليك كل الناس .

ـ كانت جماجم العرب بيدى ، يسالمون من سالمت ، ويحاربون من حاربت ، فتركتها ابتغاء وجه الله .

واستعمل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ،

فساء ذلك المغيرة بن شعبة ، فأتى معاوية وقال له :

ــ استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمرا على مصر، فتكون أنت بين لحيى الأسد

وفكر معاوية فوجد ما قاله المغيرة صحيحا ، فعزل عبد الله وولى المغيرة .

وبلغ عمرا ماقال المغيرة لمعاوية ، فدخل عمرو على معاوية فقال :

ــ استعملت المغيرة على الكوفة ؟

ــ نعم .

ــ أجعلته على الخراج ؟

ــ نعم .

ــ تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئا ، استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك .

فعزل المغيرة عن الخراج ، واستعمله على الصلاة ، فلقى المغيرة عمرا فكلمه فى ذلك فقال عمرو :

ــ ألست المشير على أمير المؤمنين فى عبد الله بن عمرو ؟

ــ بلى .

ــ فهذه بتلك .

وانصرف معاوية راجعا إلى الشام ، وأتى سليمان بن صرد الحسن ، وكان غائبا عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم ، فقال :

ــ السلام عليك يا مذل المؤمنين .

ــ وعليك السلام ، إجلس لله أبوك .

ــ إن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم

ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية فى العهد ولا حظا من القضية . فلو كنت كتبت عليه بذلك كتابا وأشهدت عليه شهودا من أهل المشرق والمغرب أن هذا الأمر لك بعده كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به ، من قوله ، ثم قال وزعم على رءوس الناس ما قد سمعت ، إنى كنت شرطت لقوم شروطا ، ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أمانى ، ارادة إطفاء الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، والله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه ، فأعد للحرب خدعة ، أذن لى أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعة ، وأنبذ إليه على سواء أن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وسكت سليمان ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته وكلهم يقول :

ــ ابعث سليمان بن صرد وابعثنا معه ثم الحقنا إذا علمت أن قد أشخصنا عامله وأظهرنا خلعه .

فتكلم الحسن ، فحمد الله ثم قال :

ــ أما بعد ، فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه لانصيحة والصحبة والاستقامة لنا . وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت للجزم فى أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ما كان معاوية بأبأس منى بأسا وأشد شكيمة ، ولكن رأيى غير ما رأيتم ، ولكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله ، وسلموا الأمر لله ، والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم حتى يستريح بر ويستراح من فاجر.

وقام سليمان وخرج من عنده وهو يرجو أن يجد عند الحسين غير ما وجد عند الحسن . فلما دخل عليه وعرض ما عرضه على الحسن قال :

ـ ليكن كل رجل منكم حلسا من أحلاس بيته ما دام معاوية حيا ، فإنها بيعة كنت والله لها كارها ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم .

وتجهز الحسن والحسين للشخوص إلى المدينة ، فدخل عليهما المسيب بن نجية الفزارى وظبيان بن عمارة التيمى ليودعاها ، فقال الحسن :

ـ الحمد لله الغالب على أمره ، لو أجمع الخلق جميعا على أن يكون ما هو كائن ما استطاعوا .

فقال الحسين :

ـ لقد كنت كارها لما كان ، طيب النفس على سبيل أبى حتى عزم على أخى فأطعته ، وكأنما يجد أنفى بالمواسى .

فقال له المسيب :

ـ إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تضاموا وتنتقصوا.. أما نحن فإنهم سيطلبون مودتنا بكل ما قدورا عليه .

ـ يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا .

قال الحسن :

ـ سمعت أبى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أحب قوما كان معهم)

وتجهز الحسن والحسين ، وخرج الناس لوداعهم ، وانطلق الركب وقد جرت الدموع ، وطأطأ أبو بكرة رأسه ، فعاد بفكره القهقرى متذكرا يوم كان النبى يحدثهم والحسن بن على فى حجره، فيقبل على أصحابه فيحدثهم ، ثم يقبل على الحسن فيقبله ثم يقول : (ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) .

— ٨ —

سار الحسن والحسين إلى المدينة ، وكانا كلما نزلا بقبيلة ، قالوا للحسن :

ــ يا عار المؤمنين ! .

فكان يقول لهم في هدوء :

ــ العار خير من النار .

وما كان يغضب لتسفيه رأيه فيما أتاه من مهادنة معاوية ، فقد كان يعلم أن وجه الحكمة فيما أتاه ملتبس ، فالخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وسخط موسى فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي .

ودخلا المدينة ، ودار بين الحسن والحسين كلام فتقاطعا وراح الحسن يخرج عن ماله لا يرد سائلا ، فقيل له :

ــ لأي شيء نراك لا ترد سائلا وإن كنت على فاقة ؟

ــ إني لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحي أن أكون سائلا وأرد سائلا ، وإن الله تعالى عودني عادة ، عودني أن يفيض نعمه علي ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة ، أن يمنعني العادة .

وبسط للحسن على باب داره فخرج وجلس ، فانقطع الطريق، فما يمر أحد من خلق الله إجلالا له ، ففطن إلى ذلك فقام .

وقيل للحسين :

ــ لو أتيت أخاك فهو أكبر منك سنا ؟

ــ إن الفضل للمبتدىء به ، وأنا أكره أن يكون لي الفضل على أخي .

فبلغ ذلك الحسن فأتاه وترضاه ، وخرجا فأمسك ابن عباس للحسن ثم للحسين بالركاب وسوى عليهما ثيابهما ، فالتفت رجل

إلى ابن عباس وقال :

ـ أنت أسن منهما تمسك لهما الركاب ؟ !

ـ يا لكع ! أما تدرى من هذان ؟ هذان إبنا رسول الله ﷺ ، أليس مما أنعم الله به أن أمسك لهما وأسوى عليهما .

ووافى أوان الحج ، فاقبل الحجيج ، ورأى رجل من أهل الشام رجلا أبيض اللون مشربا بحمرة ، أدعج العينين ، سهل الخدين ، كث اللحية ، بعيدا ما بين المنكبين ، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، لم ير أحسن وجها ولا سمتا ولا ثوبا ولا دابة منه ، فمال قلبه اليه فسأل :

ـ من هذا ؟

ـ هذا الحسن بن على بن أبى طالب .

فامتلأ قلبه بغضا ، وأحس رغبة فى أن يسبه ، فانطلق إليه فقال فى جفوة :

ـ أأنت ابن أبى طالب ؟

فقال الحسن فى هدوء :

ـ أنا ابن ابنه .

فراح الرجل يسبه ويسب أباه والحسن هادىء حتى إذا ما انتهى كلام الرجل قال له الحسن :

ـ أحسبك غريبا ؟

ـ أجل .

ـ فما بنا ، فإن أحتجت إلى منزل أنزلناك أو إلى مال آسيناك ، أو إلى حاجة عاوناك .

فتبخرت ثورة الرجل ، وانقشع حقده ، وانصرف وما على الأرض أحب إليه منه .

وخرج الحسن والحسين إلى الحج يمشيان ، وقال الحسن :

ـ إنى لاستحى من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته .

وانطلقا فلم يمرا براكب إلا نزل يمشى ، ومرا على سعد بن أبى وقاص فنزل ، وثقل ذلك على بعضهم ، فجاءوا سعدا فقالوا له :

ـ قد ثقل علينا المشى ، ولا نستحسن أن نركب وهذان السيدان يمشيان .

فقال سعد للحسن :

ـ يا أبا محمد ، إن المشى قد ثقل على جماعة ممن معك ، والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم أن يركبوا ، فلو ركبتما .

ـ لا نركب ، قد جعلنا على أنفسنا المشى إلى بيت الله الحرام على أقدامنا ، ولكننا نتنكب الطريق .

فأخذا جانبا من الطريق وإنطلقا .

وكان الحسن يطوف فلقيه عمرو بن العاص فقال له :

ـ يا حسن زعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله رأسيا بعد ميله ، وبينا بعد خفاقه ، أفرضى الله بقتل عثمان أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطحن ، عليك ثياب كغرقى البيت وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألم للشعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حياض أبيك .

ـ إن لأهل النار لعلامات يعرفون بها ، إلحادا لأولياء الله! وموالاه لأعداء الله ، والله إنك لتعلم أن عليا لم يرتب فى الدين ، ولم يشك فى الله ساعة ولا طرفة عين قط ، وأيم الله لتنتهين يا ابن أم عمرو أو لأنفذن حضنيك بنوافذ أشد من القصبعية ، فإياك والتهجم على ، فإنى من قد عرفت ، لست بضعيف الغمزة ، ولا هش المشاشة ، ولا مرىء المأكلة ، وأنى من قريش كواسطة القلادة يعرف حسبى ولا أدعى لغير أبى ، وأنت من تعلم ويعلم الناس تحاكمت فيك رجال قريش فغلب عليك جزارها الأمهم حسبا ،

وأعظمهم لؤما ، فإليك عنى فإنك رجس ونحن بيت الطهارة أذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيرا .

* * *

ورأى الحسن غلاما أسود يأكل من رغيف لقمة ، ويطعم كلبا هناك لقمة فقال له :

ـ ما حملك على هذا ؟

ـ إنى أستحى منه أن آكل ولا أطعمه .

ـ لا تبرح مكانك حتى آتيك .

فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذى هو فيه وعاد إليه فأعتقه وملكه الحائط ، فقال الغلام :

ـ يا مولاى ، قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له .

ـ ٩ ـ

دخل عبيد الله بن عباس على معاوية ، فوجد عنده بسر بن أرطأه ، فتغير وقال :

ـ أأنت أمرت اللعين السيىء القدم أن يقتل ابنى ؟

فقال معاوية فى إنكار :

ـ ما أمرته بذلك ولوددت أنه لم يكن قتلهما .

فغضب بسر ، ونزع سيفه فألقاه ، وقال لمعاوية :

ـ أقبض سيفك عنى ، قلدتنيه وأمرتنى أن أخبط به الناس

ففعلت حتى إذا بلغت ما أردت قلت : لم أهو ولم آمر.

فقال معاوية فى حدة :

ـ خذ سيفك إليك ، فلعمرى إنك ضعف مائق حين تلقى السيف بين يدى رجل من بنى عبد مناف قد قتلت أمس ابنيه .

فقال له عبيد الله :

ـ اتحسبنى يا معاوية قاتلا بسرا بأحد ابنى ؟ هو أحقر وألأم من ذلك ، ولكن والله لا أرى لى مقنعا ولا أدرك ثأرا إلا أن أصيب بهما يزيد وعبد الله .

فتبسم معاوية وقال فى لين :

ـ وما ذنب معاوية وابنى معاوية ! والله ما علمت ولا أمرت ولا رضيت ولا هويت .

وخرج عبد الله ، وأقبل أصحاب معاوية ، فراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وبينما هم فى حديثهم إذ قال الحاجب :

ـ الحسن بالباب .

فقال معاوية :

ـ إنه إن دخل علينا أفسد ما نحن فيه .

فقال له مروان :

ـ إيذن له فإنى أسأله عما ليس عنده فيه جواب .

ـ لا تفعل ، فإنهم قوم ألهموا الكلام .

فأذن له ، فلما دخل وجلس قال معاوية :

ـ والله لأحبونك بجائزة ماأجزت بها أحدا قبلك ، ولا أجيز بها أحدا بعدك .

فأمر له بمائة ألف ، ولم يطق مروان أن يسكت دون أن يغمز الحسن فقال :

ـ أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال أن ذلك من الخرق .

ـ ليس كما بلغك ، ولكنا معشر بنى هاشم طيبة أفواهنا فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن ، وأنتم معشر بنى أمية فيكم بخر شديد ، فنساؤكم يصرفن أفواههن عنكم إلى أصداغكم ، فإنما يشيب موضع العذار من أجل ذلك .

فقال مروان :

ـ أما إن فيكم يا بنى هاشم عضلة سوء .

ـ ما هى ؟

ـ الغلمة .

ـ أجل نزعت الغلمة من نسائنا ووضعت فى رجالنا ، ونزعت الغلمة من رجالكم ووضعت فى نسائكم ، فما قام لأموية إلا هاشمى.

فغضب معاوية وقال :

ـ قد كنت أخبرتكم فأبيتم ، حتى سمعت ما أظلم عليكم بيتكم وأفسد مجلسكم .

* * *

واجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة . وعتبة بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة فقالوا :

ـ يا أمير المؤمنين ، إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصدق ، وأمر فأطيع وخفقت له النعال ، وإن ذلك مدافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا .

ـ فما تريدون ؟

ـ ابعث إليه فليحضر لنسبه ونسب أباه ونعيره ونوبخه ونخبره أن أباه قتل عثمان ، ونقرره بذلك ولا يستطيع أن يغير علينا شيئا من ذلك .

ـ إنى لا أرى ذلك ولا أفعله .

ـ عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن .

ـ ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالسا عندى إلا خفت مقامه وعيبه لى .

ـ ابعث إليه على كل حال .

ـ إن بعثت إليه لأنصفنه منكم .

فقال عمروبن العاص :

ـ أتخشى أن يأتى باطله على حقنا ، أو يربى قوله على قولنا ؟ !

ـ أما إنى إن بعثت إليه لآمره أن يتكلم بلسانه كله .

ـ مره بذلك .

ـ أما إذا عصيتمونى وبعثتم إليه وأبيتم إلا ذلك ، فلا تمرضوا له فى القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقذفوه بحجرة . تقولون له أن أباك قتل عثمان وكره خلافة الخلفاء من قبله .

فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله فقال :

ـ إن أمير المؤمنين يدعوك .

ـ من عنده ؟

ـ فسماهم له فقال الحسن :

ـ مالهم خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

ثم قال :

ـ يا جارية ، أبغينى ثيابى ، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ بك فى نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين .

ثم قام فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خطران الفحول بغيا فى

أنفسهم وعلوا ، ثم قال :

ـ يا أبا أحمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصونى .

ـ سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما فى أنفسهم إنى لأستحى لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إنى لأستحى لك من الضعف ، فأيهما تقر وأيهما تنكر ؟ أما إنى لو علمت مكانهم جئت معى بمثلهم من بنى عبد المطلب ، وما لى أن أكون مستوحشا منك ولا منهم ، إن وليي الله وهو يتولى الصالحين .

ـ يا هذا ، إنى كرهت أن دعوك ، ولكن هؤلاء حملوننى على ذلك مع كراهيتى له ، وإن لك منهم النصف ومنى ، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قتل مظلوما ، وإن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص :

ـ إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدثك نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه .

كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك وتركك أحمق قريش ، يسخر منك ويهزأ بك وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك فى أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ، فإن كنت ترى أنا كذبنا فى شيء فاردده علينا فيما قلنا وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عتبة فقال :

ـ إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم ،

وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم يكرمكم فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلما لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك .

ثم تكلم عتبة بن أبى سفيان فقال :

ـ يا حسن ، كان أبوك شر قريش لسفكه لدمائها ، وقطعه لأرحامها ، طويل السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن قتل عثمان ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زندها قادحا ، ولا فى ميراثها راجحا ، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم عثمان ، وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان اثم ولا عدوان .

ثم تكلم المغيرة فشتم عليا وقال :

ـ والله ما أعيبه فى قضية يخون ، ولا فى حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان .

ثم سكتوا ، فتكلم الحسن بن على :

ـ يا معاوية فما هؤلاء شتمونى ولكنك شتمتنى فحشا ألفته، وسوء رأى عرفت به ، وخلقا سيئا ثبت عليه ، وبغيا علينا عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا ، فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية ؟ ! وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيمانا ، وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلبهم تسرون الكفر وتظهرون الإسلام ،

وتستمالون بالأموال ، وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وإن راية المشركين كانت مع معاوية وأبيه . ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ، ومعه راية رسول الله ﷺ ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفى كل ذلك يفتح الله له ويفلح حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ، ورسول الله ﷺ فى تلك المواطن كلها عنه راض وعليك وعلى أبيك ساخط، وأنشدك الله يا معاوية أتذكر يوما جاء أبوك على جمل أحمر وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده فرآكم رسول الله ﷺ فقال : اللهم ألعن الراكب والقائد والسائق ، والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت . وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن عليا حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ فانزل فيه: (يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لله لكم) وأن رسول الله ﷺ بعث أكابر أصحابه إلى بنى قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث عليا بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل فى خيبر مثلها . وأنتم أيها الرهط أنشدكم الله ألا تعلمون أن رسول الله لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لا تستطيعون ردها ، أولها يوم لقى رسول الله ﷺ خارجا من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفا إلى الدين فوقع به وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهم أن يبطش به فلعنه الله ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم العير إذ عرض لها رسول الله ﷺ وهى جائية من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها ولم يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله ﷺ فى أعلاه وهو ينادى أعل هبل مرارا فلعنه رسول الله ﷺ عشر مرات ولعنه المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود فلعنه رسول الله وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبو سفيان

فى قريش فصدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ، ذلك يوم الحديبية فلعن رسول الله ﷺ أبا سفيان ، والسادسة يوم الجمل الأحمر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله ﷺ فى العقبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا إثنى عشر رجلا منهم أبو سفيان ، فهذا لك يا معاوية .

وأما أنت يابن العاص فإن أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا من عهر وسفاح ، فتحاكم فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزارها ، الأمهم حسبا ، وأخبثهم منصبا ، ثم قام أبوك فقال : أنا شانىء محمد الأبتر ، فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله ﷺ فى جميع المشاهد ، وهجوته وآذيته بمكة وكدته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشى مع أصحاب السفينة لتأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة ، فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبا ، وأكذب واشيا ، جعلت حقدك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشى حسدا لما ارتكب من حليلته ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتا من الشعر ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنى لا أقول الشعر ولا ينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة ، فعليك من الله ما لايحصى من اللعن . وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا نارا ثم لحقت بفلسطين ، فلما أتاك قتله قلت : أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها ، ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعت دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حيا ، ولا غضبت له مقتولا .

وأما أنت يا وليد ما ألومك على بغض على وقد جلدك ثمانين فى الخمر وقتل أباك بين يدى رسول الله ﷺ صبرا ، وأنت الذى

سماه الله الفاسق وسمى عليا المؤمن حيث تفاخرتما فقلت له :

أسكت يا على فأنا أشجع منك جنانا وأطول منك لسانا ، فقال لك على اسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى فى موافقته قوله : (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) ثم أنزل فيك على موافقته قوله أيضا : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ...) وما أنت وقريش ؟ إنما أنت علج من صفورية ، وأقسم بالله لأنت أكبر فى الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك عير يرجى ولا شر يتقى ، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء ، وما يضر عليا لو سببته على رءوس الأشهاد ، وأما وعيدك إياى بقتلى فهلا قتلت اللحيانى وجدته على فراشك ، أما تستحى من قول نصر بن حجاج فيك :

يا للرجال وحادث الأزمـان ولسبـة تخزى أبا سفيـان

نبئت عتبة خانه فى عرسه جنس لئيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحد سيفك ولم تقتل فاضحك ! وكيف ألومك على بغض على وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر وشارك حمزة فى قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة فى مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع فى هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : استمسكى فإنى طائرة عنك ، فقالت النخلة : وهل علمت بك واقعة على فأعلم بك طائرة عنى ! والله ما نشعر بعداوتك إيانا ولا اغتممنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله فى الزنا لثابت عليك ،ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله ﷺ: هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ، فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان ، وأما فخركم علينا

بالإمارة فإن الله تعالى يقول : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال :

ـ يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله فى قذف أمى بالزنا وأنا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية فى غيظ :

ـ خل عنك ، جزاك الله خيرا .

فتركه ، وانصرف الحسن وتركهم يحسون كمدا ، فقال معاوية:

ـ قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتمونى ، والله ما قام حتى أظلم على البيت ، قوموا عنى ، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم وعدولكم عن رأى الناصح المشفق والله المستعان .

ـ ١٠ ـ

دخل الحسن على معاوية وقد عزم على أن يعود إلى المدينة فألفى معاوية جالسا فى مجلس ضيق فجلس عند رجليه ، فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث ثم قال :

ـ عجبا لعائشة تزعم أنى فى غير ما أنا أهله ، وأن الذى أصبحت ليس لى بحق ، مالها ولهذا يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وأستأثر به .

فقال له الحسن :

ـ أو عجب هذا يا معاوية ؟

ـ أى والله .

ـ أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟

ـ ما هو ؟

ـ جلوسك فى صدر المجلس وأنا عند رجليك .

فضحك معاوية وراوغ على عادته فقال :

ـ يا ابن أخى بلغنى أن عليك دينا .

ـ إن لعلى دينا .

ـ كم هو ؟

ـ مائة ألف .

ـ أمرنا لك بثلثمائة ألف ، مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها فى أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ، فقم مكرما فاقبض صلتك .

وخرج الحسن ، ويزيد بن معاوية يحس ضيقا حتى إذا ما خلا المجلس من الناس قال لأبيه :

ـ تالله ما رأيت رجلا مثلك ، استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلاثمائة ألف !

ـ يا بنى إن الحق حقهم فمن أتاك منهم فاحث له .

وخرج الحسن إلى المدينة ، فمر بصبيان يأكلون كسرا من الخبز ، فاستضافوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم أنواعا وكساهم وقال :

ـ اليد لهم أنهم لم يجدوا غير ما أطعمونى ، ونحن نجد كثيرا مما أعطيناهم .

وكان قد أشترى حائطاً من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف فبلغه أنهم احتاجوا ما فى أيدى الناس ، فرده إليهم .

وسمع رجلا يسأل ربه عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه ، فقد كان سخيا جوادا حتى إنه خرج عن ماله لله تعالى مرتين ، وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، حتى إن كاد ليعطى نعلا ويمسك نعلا.

كان عطاؤه فى كل سنة مائة ألف ، كان يوزعها على الفقراء

والمساكين وما كان يدعو إلى طعامه أحدا فقد كان يقول أن طعامه أهون من أن يدعى إليه أحد ، وحبس عنه معاوية عطاءه فى بعض السنين ، فأحس ضيقا شديدا ، فدعا بدواة ليكتب إلى معاوية ليذكره نفسه ، ولكنه أمسك ونام تلك الليلة فرأى رسول الله ﷺ فقال :

ـ كيف أنت يا حسن ؟

ـ بخير يا أبت .

وشكا إليه تأخر المال عنه ، فقال :

ـ أدعوت بدواة لتكتب لمخلوق مثلك تذكره ذلك ؟

ـ نعم يا رسول الله فكيف أصنع ؟

ـ قل : اللهم اقذف فى قلبى رجاءك ، واقطع رجائى عمن سواك حتى لا أرجو أحدا غيرك .

وما انقضى أسبوع حتى بعث إليه معاوية بعطائه ، فقال الحسن :

ـ الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه .

وخرج معاوية للحج فمر على المدينة ، ودخل بيت سعد بن أبى وقاص ودعاه للحج معه ، وكان سعد آخر من بقى من رهط الشورى ، فخرج مع معاوية معززا مكرما ، ولما بلغا مكة طافا معا، وانتهت مراسيم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته ، وجلس على سريره وأجلس سعدا معه عليه ، وأخذا بأطراف الحديث ، فراحا يتذكران ويذكران ما مضى من أحداث ، وغر معاوية إقبال سعد عليه فوقع فى على وشرع فى سبه ، ثم قال :

ـ ما يمنعك أن تسب أبا تراب ؟

فبان الغضب فى وجه سعد وقام وقال فى حدة :

ـ أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب على ، والله

لأن يكون فى خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن أكون صهرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لى من الولد ما لعلى ، أحب ألى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله يوم خيبر : (لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار ، يفتح الله على يديه) أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال له فى غزوة تبوك : (ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى من بعدى) أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، لا أدخل عليك دارا بعد هذا اليوم . ونفض سعد رداءه ثم خرج .

***

لقى الحسن حبيب بن مسلمة ، فقال له :

ـ يا حبيب ، رب مسير لك فى غير طاعة الله .

فقال حبيب فى سخرية :

ـ أما مسيرى من أبيك فليس من ذلك .

ـ بلى والله ، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فإن من قام بك فى دنياك قد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت قلت خيرا كان ذلك كما قال عز وجل : (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) ولكنك كما قال سبحانه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)

ومرت سنون فنسى معاوية أو تناسى فضل الحسن عليه فبعث إليه بكتاب يتوعده لأمر من الأمور ، ودخل رجل على الحسن وفى يده الصحيفة ، فقال له الرجل :

ـ ما هذه ؟

ـ كتاب معاوية يتوعد فيه .

فقال الرجل معاتبا :

ـ لقد كنت على النصف فما فعلت !

ـ أجل ، ولكنى خشيت أن ياتى يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا تشخب أوداجهم كلهم يستعدى الله فيم هريق دمه .

ـ ١١ ـ

كانت فكرة استخلاف معاوية ليزيد تراوده ، فهو أحب الناس إليه ، وإنه ليتمنى أن يخلفه ، ولكنه لا يستطيع أن يعلن رغبته ، وأن يكشف أمنيته ، فهناك من يشرئبون للخلافة ، وهناك الحسن ابن على الذى صالحه على أن يكون الأمر له من بعده ، وكتم معاوية أمنيته فقد كان يخشى أن يجهر بما يحب حتى لا يؤلب القوم عليه ، فكان يذكر يزيد بالخير كلما واتته فرصة ليحببه إلى الناس ، وليهيئه لقبوله خليفة عليهم .

وقدم المغيرة بن شعبة على معاوية ، وكان يعلم هواه فقال له

ـ يا أمير المؤمنين قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والأختلاف ، وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد مقتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علما يفزعون إليه ، وأجعل ذلك يزيد ابنك .

وكأنما المغيرة لا يجيد غير هذا ، فقد أشار على عمر أن يستخلف عبد الله ابنه ، ولكن عمر العظيم غضب وقال له : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، أما معاوية فقد وافق هذا القول هوى فى نفسه ، فوطن العزم على أن يدعو إلى تولية ابنه من بعده . كان يعلم أن الطرق شائكة ، والصعاب كثيرة ، ولكن

المتاعب تهون فى سبيل الإبن الحبيب .

وفكر معاوية فأمعن فى التفكير ، فهناك فى الحجاز من يفضلون يزيد ، ومن يطمعون فى الخلافة ، فكيف بهم إذا رفضوا البيعة ، وشقوا عصا الطاعة ، ورأى معاوية أن يبدأ محاولته فى الشام ، حيث العزة والأهل فإذا أخذ البيعة لابنه تفرغ للحجاز وأهله ولن تعييه الحيل ، ولن يقصر دهاؤه عن أن يتفتق عما ينيله رغبته ، ويحقق أمنيته .

واجتمع عند معاوية وفود الأمصار بدمشق ، فشاء أن يهتبل الفرصة المواتية فدعا أحد أنصاره وقال له :

ــ إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتى وكلامى فاستأذن فى القيام ، فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد، وقل فيه الذى يحق له عليك من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته من بعدى ، فإنى قد رأيت وأجمعت على توليته ، فاسأل الله فى ذلك وفى غيره الخيرة وحسن القضاء .

ودعا معاوية آخرين فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ صاحبه وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد ، واعتلى معاوية المنبر ، وفرغ من بعض موعظته ، فقام الرجل فاستأذن فى الكلام ، فأذن له ، فجعل يعدد فضائل يزيد ثم التمس من أمير المؤمنين أن يعزم على مبايعته ، ولا يضيق به ذرعا ، فالله يجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر، ويحسن به الذخر ، ثم جلس ، فقام أخر ثم آخر ، فلما انتهى أعوان معاوية انشرح صدره ، فقد قالوا وأحسنوا ، فقال معاوية :

ــ أو كلكم قد أجمع على هذا رأيه ؟

ــ كلنا قد أجمع رأيه على ماذكرنا .

ــ فأين الأحنف ؟

كأنما شاء أن يسمع رأى أهل العراق . فأجابه الأحنف فقال معاوية :

ـ الا تتكلم ؟

فقال أحنف فحمد الله فاثنى عليه ثم قال :

ـ أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف ، وقد حلبت الدهر أشطره ، يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يغررك من يشير عليك ولا ينظر لك . وأنت أنظر للجماعة وأعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ما كان الحسن حيا .

فغضب الضحاك بن قيس ، فقد كان أول من دسه معاوية ليدعوه لتولية يزيد ، فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

ـ أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق مروءتهم فى أنفسهم الشقاق ، وألفتهم فى دينهم الفراق ، يرون الحق على أهوائهم كأنما ينظرون بأقفائهم ، اختالوا جهلا وبطرا لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبال عاقبة ، اتخذوا إبليس لهم ربا ، واتخذهم إبليس حزبا ، فمن يقاربوه لا يسروه ، ومن يفارقوه لا يضروه ، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين فى نحورهم ، وكلامهم فى صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن فى سلطان الله الذى استخلف به معاوية أرضه ، هيهات لا تورث الخلافة عن كلالة ، ولا يحجب غير الذكر العصبة ، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتب نبيكم وصهره يسلم لكم العاجل وتربحوا من الآجل .

ثم قام الأحنف فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريش فوجدناك أكرمها زندا ، وأشدها عقدا ، وأوفاها عهدا . وقد علمت أنك لم

تفتح العراق عنوة ، ولم تظهر عليها قعصا ، ولكنك أعطيت الحسن ابن على من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل للوفاء ، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا جيادا وأذرعا شدادا وسيوفا حدادا . إن تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصر . وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا عليا وحسنا منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك غير من السماء وأن السيوف التى شهروها عليك مع على يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها لبين جوانحهم ، وايم الله أن الحسن لأحب إلى أهل العراق من على .

ثم قام عبد الله بن عثمان الثقفى فقال :

ــ أصلح الله أمير المؤمنين إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ، لا يدعون أحدا إلى رشاد ، ولا يجيبون داعيا إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون لهم فى السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد فى أحسن القضية ، وأرضاها لحمل الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حلما وعلما ، وأوسعنا كنفا وخيرنا سلفا ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به سبل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ممن هو شاسع عاص ، ينوص للفتنة كل مناص ، لسانه ملتو ، وفى صدره داء دوى ، إن تكلم فشر قائل ، وإن سكت فداء غائل ، وقد عرفت من هم أولئك ، وما هم عليه لك من المجانبة للتوفيق ، والكلف للتفريق ، فاجل ببيعته عنا الغمة ، واجمع به شمل الأمة ، فلا تخدعنه إذا هديت له ولا تنبش عنه إذا وفقت له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحق علينا وعليك ، أسأل الله العون وحسن العافية لنا ولك بمنة .

فقام معاوية فقال :

ــ أيها الناس ، إن لإبليس من الناس إخوانا وخلانا ، بهم

يستعد وإياهم يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعا أوجفوا ، وإن أستغنى عنهم أرجفوا ، ثم يلحقون الفتن بالفجور ، ويشققون لها حطب النفاق ، عيابون مرتابون ، إن لووا عروة أمر حنقوا ، وإن دعوا إلى عى أسرفوا ، وليسوا أولئك بمنتهين ، ولا بمقلعين ولا متعظين حتى تصيبهم صواعق خزى وبيل ، وتحل بهم قوارع أمر جليل ، تجتث أصولهم كاجتثاث أصول الفقع ، فأولى لأولئك ثم أولى ، فإنا قد قدمنا وأنذرنا أن أغنى التقدم شيئا أو نفع النذر .

ثم قام أبو حنيف فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، إنا لا نطيق السنة مضر وخطبها ، أنت أمير المؤمنين فإن هلكت فيزيد بعدك ، فمن أبى فهذا .

وسل سيفه ، فقال معاوية :

ـ أنت أخطب القوم وأكرمهم .

وقام الأحنف بن قيس فقال :

ـ يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره ، وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله وأستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شرلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن أو الحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك إليك المصير .

وكتب معاوية إلى يزيد يستشيره ، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب ، فقال له :

ـ إن لكل مستشير ثقة ، ولكل سر مستودع ، وإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان : إذاعة السر ، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها ، وليس موضع السر إلا أحد رجلين ، رجل آخرة يرجو ثوابا ، ورجل دنيا له شرف فى نفسه ، وعقل يصون حسبه ، وقد

عجمتهما منك فأحمدت الذى قبلك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف . إن أمير المؤمنين كتب إلى يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرنى ، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد ، فالق أمير المؤمنين مؤديا عنى فأخبره عن فعلات يزيد .

ـ رويدك بالأمر فاقمن أن يتم لك ما تريد ، ولا تعجل فإن دركا فى تأخير ، خير من تعجيل عاقبته الفوت . أفلا غير هذا !

ـ ما هو ؟

ـ لا تفسد على معاوية رأية ، ولا تمقت إليه ابنه ، وألقى أنا يزيد سرا من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى بيعته ، وإنك تخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل لك ما تريد ، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين ، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة .

ـ قد رميت الأمر بحجره ، أشخص على بركة الله ، فإن اضبت فمالا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستغش ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ .

وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألا يعجل ، فقبل ذلك منه ، وتريث مدة ، ولكن الفكرة كانت تلح عليه ، فرأى أن ينطلق إلى المدينة ليفاوض هؤلاء النفر الذين يأبون المبايعة ليزيد ، ليتوعدهم مرة ، ويمنيهم مرارا ، لعله يستطيع أن يطويهم بدهائه أو يشتريهم بماله ، وقدم المدينة فخرج الناس لاستقبال أمير المؤمنين ، فبش لهم وهش ، وجعل يتملقهم لعله يكسبهم إلى جانبه فى معركة الخلافة القادمة .

ودخل منزله ، ولم يضيع كثير وقت ، فقد كانت رغبة

استطلاع رأى هؤلاء النفر تقلقه ، فبعث إلى عبد اله بن عباس، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل عقدهم أمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، والتفت إليهم وقال :

ــ الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا كما أنعم علينا كثيرا ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد : فإنى قد كبرت سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليهم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما، وشديد محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله .

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

ــ الحمد لله الذى ألهمنا أن نحمده ، وأوجب علينا الشكر على آلائه و حسن بلائه ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد ، أما بعد فإنك قد تكلمت فانصتنا ، وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمدا ﷺ لرسالته ، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه ، فاشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أحقهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذا إختاره الله لها ، فإنه اختار محمدا بعلمه وهو العليم الخبير ، وأستغفر الله لى ولكم .

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

ــ الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إلة إلا الله واحدا صمدا ،

لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ﷺ . أما بعد ، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وايم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ولأطيع الله وعصى الشيطان وما اختلف فى الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعيا ونحن رعية ، فانظر لرعيتك إنك مسئول عنها غدا ، وأما ما ذكرت من ابنى عمى وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أو دع ، واستغفر الله لى ولكم .

فقام ابن الزبير فقال :

ـ الحمد لله الذى عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ﷺ ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم الرسول ، وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبدالله بن الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ ، وعلى خلف حسنا وحسينا وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك .

وقام عبد الله بن عمر فقال :

ـ أما بعد ، إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولوكان كذلك كنت القائم بها بعد أبى ، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطا مشروطا ، وإنما هى فى قريش خاصة لمن كان لها

أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمرى إن يزيد من فتيانها ، وأعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئا .

فنظر معاوية إليهم وقال :

– قد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب إلى من أبنائهم ، وإنما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله ﷺ ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا سيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف فلا يزيل فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يابن الزبير وأنت يابن عمر منها ، فأما ابنا عمى هذان فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله .

وخرج معاوية إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، ولم يكن سكوته اقتناعه بأن هناك من هو أحق بها من يزيد ، بل كان يفكر ويدبر ، إن الحسن بن على حجرة عثرة فى سبيل تولية يزيد وإز يزيد أحب اليه من العالمين ، فلو أن الحسن قضى لأصبح الأمر هينا فراح يفكر فى وسيلة يتخلص بها من الحسن .

– ١٢ –

عشر سنوات تقضت بعد استتباب الأمر لمعاوية ، فنال ما يشتهى ولم يبق له إلا أمنية واحدة ، كان يرجو أن يبايع الناس ليزيد فيقر بذلك عينا ، ولكن بقاء الحسن حيا يجعل تحقيق هذه الأمنية عسيرا ، وأخذ يقدح زناد فكره فسقط على فكرة وضيعة ، فلم تثنه وضاعتها عن تنفيذها ، فما كان ممن يحفلون كثيراً بالوسائل ، إنه يبغى غاية وينطلق إلى هدف ، فكان كل همه أن يحقق الغاية وأن يبلغ الهدف سواء سار على الصراط أو تنكب

الطريق .

وجعل يستعرض أزواج الحسن فوجد فى جعدة بنت الأشعث طلبته ، فأبوها الأشعث بن قيس كان ممن أرغم الامام على قبول التحكيم ، وإنه ليطمع فى أن يجد فى الإبنة عونا كما وجد فى الأب عونا .

ودس إليها معاوية : إنك إن احتلت فى قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم ، وزوجتك يزيد ، وراحت جعدة توازن بين ما يعرضه عليها معاوية وبين بقائها فى كنف الحسن فرأت أن الحسن كثير التزوج ، وإنه مطلاق مصداق ، فمن يدرى فقد يطلقها غدا ويبعث إليها بعشرة آلاف وبزقاق من عسل كما فعل مع من طلق .

وطفق عرض معاوية يتخايل لها ، وجعل شيطانها يوسوس لها ، فدست السم لزوجها الآمن ، وراحت تجرعه السم كل يوم ، فمرض ، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن ، فكتب إليه معاوية ، إن استطعت أن لا يمضى يوم بى يمر إلا يأتينى فيه خبره فافعل .

وإشتد مرض الحسن ، فدخل رجل عليه يعوده ، فالتفت إليه الحسن فقال :

ـ سلنى

ـ والله لا أسألك حتى يعافيك الله وأسألك .

ـ لقد ألقيت طائفة من كبدى ، وإنى سقيت السم مرارا فلم أسقه مثل هذه المرة .

وجعل الحسن يذبل ، ودخل الحسين عليه وجلس عند رأسه وقال :

ـ من تتهم يا أخى ؟

ـ لم ؟ لأن تقتله ؟

ـ نعم .

ـ أن يكون الذى أظنه فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا ، وإن لم يكن هو فما أحب أن يقتل بى برىء .

واشتد بالحسن الوجع فجزع فقال له الحسين :

ـ يا أبا محمد ، ما هذا الجزع ، ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك علي وفاطمة ، وعلى جدك النبى ﷺ وخديجة ، وعلى أعمامك حمزة وجعفر ، وعلى أخوالك القاسم والطيب ومطهر وابراهيم ، وعلى خالاتك رقية وأم كلثوم .

ـ يا أخى إنى أدخل فى أمر من أمر الله لم أدخل فى مثله ، وأرى خلقا من خلق الله لم أر مثله قط .

فغامت عينا الحسين بالدموع ، ثم سالت عبراته ، والتفت الحسن إليه وقال :

ـ أخرجونى إلى الصحن أنظر فى ملكوت السماء .

فأخرجوا فراشه ، فرفع رأسه فنظر فقال :

ـ اللهم إنى أحتسب نفسى عندك فإنها أعز الأنفس على .

وبعث الحسن يستأذن عائشة فى أن يدفن مع رسول الله ، فأذنت له .

فقال للحسين :

ـ ادفنونى عند قبر رسول الله ﷺ إلا أن تخافوا أن يكون فى ذلك شر .

ووهنت قوى الحسن ، وحضرت فى مخيلته صورة معاوية فغمغم :

ـ لقد حاقت شربته ، وبلغ أمنيته ، والله ما وفى بما وعد ، ولا صدق فيما قال :

ومال الحسين عليه فسمعه يهمس :

ـ يا أخى قد حضرت وفاتى ، وحان فراقى لك ، وإنى لاحق

بربى ، وأجد كبدى تقطع ، وإنى عارف من أين ذهبت ، وأنا أخاصمه إلى الله تعالى .

وجاد الحسن داعية السلام بروحه الزكية ، فهرع أبو هريرة وهو يبكى إلى مسجد رسول الله ﷺ وصاح بأعلى صوته :

ـ يا أيها الناس ، مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا .

وجهز الحسن ، وأراد الحسين أن يقبره بجوار جده ، فقال مروان :

ـ لا يدفن عثمان فى حش كوكب ويدفن الحسن فى الحجرة .

فلبس الحسين السلاح وإجتمع بنو هاشم وبنو أمية ، وأعان هؤلاء قوم ، وتأهب الفريقان للقتال ، وجاء أبو هريرة مروان فقال له :

ـ أتمنع الحسن أن يدفن فى هذا الموضع وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ؟)

فقال مروان :

ـ دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله إذا كان لا يحفظه غيرك وغير أبى سعيد الخدرى ، وإنما أسلمت أيام خيبر .

ـ صدقت ، أسلمت أيام خيبر ولكننى لزمت رسول الله ﷺ ولم أكن أفارقه ، وكنت أسأله وعنيت بذلك حتى علمت من أحب ومن أبغض ، ومن قرب ومن أبعد ، ومن أقر ومن نفى ، ومن لعن ومن دعا له .

ورأت عائشة السلاح والرجال فخافت أن يعظم الشر بينهم وتسفك الدماءفبعثت اليهم :

ـ البيت بيتى ولا آذن لأحد أن يدفن فيه .

وأبى الحسين إلا أن يدفنه مع جده ، فجاء إليه سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة وجابر وقالوا له :

ـ يا أبا عبد الله ، اتق الله ولا تثر فتنة ، فإن أخاك كان لا

يحب ما ترى ، فادفنه فى البقيع مع أمه .

وقال محمد بن الحنفية :

ـ يا أخى ، إنه لو أوصى أن يدفنه لدفناه أو نموت قبل ذلك، ولكنه استثنى وقال : إلا أن تخافوا الشر ، فأى شر يرى أشد مما نحن فيه ؟ !

وقبل الحسين أن يدفن الحسن فى البقيع ، فأخرجوا جنازته ، فحمل مروان سريره ، فقال له الحسين :

ـ تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرعه الغيظ .

ـ نعم كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

وقبر الحسن بالبقيع ، وانتظر مروان عدو بنى هاشم أن يرضى ذلك معاوية ، فإنه ما فعل ذلك إلا إرضاء له فقد كان يومئذ معزولا .

ووقف محمد بن الحنفية على قبر أخيه فقال :

ـ لئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى وخلف أهل التقول وخامس أصحاب الكساء ؟

غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثدى الإيمان ، ورببت فى حجر الإسلام ، فطبت حيا وميتا ، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا أحمد .

***

كبر معاوية فى الخضراء ، فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت زوجة معاوية من خوخة له فقالت :

ـ سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذى بلغك فسررت

به ؟

ـ موت الحسن بن على .

ـ إنا لله وإنا اليه راجعون .

ثم بكت وقالت :

ـ مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله ﷺ .

وبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية :

ـ ياإبن عباس ، هلك الحسن بن على .

ـ نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أصبنا بمن كان خيرا منه ، جده رسول الله ﷺ ، فجبر الله مصيبته وخلف الله من بعده أحسن الخلافة .

ثم شهق ابن عباس وبكى ، وبكى من حضر فى المجلس . وبكى معاوية ثم قال :

ـ بلغنى أنه ترك بنين صغارا .

ـ كلنا كان صغيرا فكبر .

ـ كم أتى له من العمر ؟

ـ أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده .

فسكت معاوية يسيرا ثم قال :

ـ يابن عباس ، أصبحت سيد قومك من بعده .

ـ أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا .

ـ لله أبوك يا بن عباس ، ما استنبأتك إلا وجدتك معدا .

وبعثت جعدة إلى معاوية تلتمس منه الوفاء بما وعدها به ، فوفى لها بالمال وأرسل اليها :

ـ إنا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

ـ ١٣ ـ

مات الحسن ، فقويت فى نفس معاوية فكرة استخلاف يزيد، ورأى أنه لو طوى الهاشميين لكان الأمر أسلس ، ففكر وأمعن فى التفكير فاهتدى إلى أنه لو زوج ابنه منهم لضمهم إليه ، ولقضى بالمصاهرة على أحقاد السنين ، فكتب إلى مروان بن الحكم وهو والى المدينة ، (أما بعد ، فأن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفة ويسل السخيمة ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابى ، فاخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين، وأرغب له فى الصداق) .

كان معاوية يبغى من ذلك أن يرضى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس والحسين بن على،فأم كلثوم ابنة زينب بنت على ، فلو ارتبطت بينه وبين حفيدة الإمام الأسباب ، لرضى رؤساء بنى هاشم ، ونامت الفتن ، واستلت الأحقاد .

وذهب مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية وأعلمه بما فى رد الألفة من صلاح ذات البين ، واجتماع الدعوة ، فقال عبد الله :

إن خالها الحسين بينبع وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأنظرنى إلى أن يقدم .

وقدم الحسين فذكر له ذلك عبد الله بن جعفر ، فقام من عنده فدخل إلى أم كلثوم ، فقال :

ــ يا بنية ، إن ابن عمك القاسم بن محمد بن جعفر أحق بك .

وحضر مروان فذكر معاوية ، وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من القاسم ، فما كان يقبل يزيد للناس ، أفيقبله لابنة زينب ؟

فغضب مروان وقال فى ثورة :

ـ أغدرا يا حسين ؟

ـ أنت بدأت ، خطب أبو محمد الحسن بن على عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان واجتمعا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير .

ـ ما كان ذلك .

فالتفت الحسين إلى محمد بن خاطب ، فقال :

ـ أنشدك الله أكان ذلك ؟

ـ اللهم نعم .

وغضب معاوية لرفض الحسين هذه الزيجة ، فأراد أن يمحو ما حاق به من إخفاق فبايع ليزيد بالشام ، وكتب بيعته إلى الآفاق، وكتب إلى مروان يأمره بجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك وأبته قريش ، فقد كان مروان يطمع فيها لنفسه ، فكتب لمعاوية :

(إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك فأرنى رأيك)

فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، وكتب إلى سعيد يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع . فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم وسطا بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس منها إلا اليسير ، لا سيما بنى هاشم فإنه لم يجبه منهم أحد ، فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية : (أما بعد ، فإنك أمرتنى أن أدعو الناس لبيعة يزيد أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء لا سيما أهل البيت من بنى هاشم فإنه لم يجبنى منهم أحد ، وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر عداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ،

ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال ، أوتقدم بنفسك فترى رأيك فى ذلك والسلام) .

فكتب معاوية إليه : (أما بعد فقد أتانى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أبطاء الناس عن البيعة ولا سيما بنى هاشم وما ذكر ابن الزبير ، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتبا فسلمها إليهم وتنجز جواباتها وأبعث بها إلىّ حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولتشد عزيمتك ، ولتصلب شكيمتك ، وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق وأياك والخرق فأن الرفق رشد ، والخرق نكد . وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقا عظيما ، لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهو ليث عرين ولست أمنك إن شاورته أن لا تقوى عليه ، فأما من يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست ، فذلك عبد الله بن الزبير فاحذره أشد الحذر ولا قوة إلا بالله ، وأنا قادم عليك والسلام)

وسلم سعيد كتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وعبد الله ابن جعفر والحسين بن على . كتب إلى ابن عباس :

(أما بعد فقد بلغنى إبطاؤك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين ، وإنى لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إلى لأنك ممن ألب عليه وأجلب ، و ما معك من أمان فتطمئن به ، ولا عهد فتسكن إليه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاخرج إلى المسجد والعن قتلة عثمان وبايع عاملى ، فقد أعذر من أنذر ، وأنت بنفسك أبصر والسلام).

فأجابه عبد الله بن عباس فكتب إليه : (أما بعد فقد جاءنى كتابك وفهمت ما ذكرت ، وأن ليس على منك أمان ، وإنه ما منك يُطلب الأمان يا معاوية ، وإنما يُطلب الأمان من رب العالمين . أما قولك فى قتلى فوالله لو فعلت للقيت الله ومحمد ﷺ خصمك ، فما أخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله خصمه . وأما ماذكرت من أنى ممن ألب فى عثمان وأجلب ، فذلك أمر غبت عنه ولو

حضرته ما نسبت إلى شيئا من التاليب عليه ، وأيم الله ما أرى أحدا غضب لعثمان نضبى ، ولا أعظم أحد قتله اعظامى ، ولو شهدته لنصرته أو أموت دونه ، ولقد قلت وتمنيت يوم قتل عثمان : ليت الذى قتل عثمان لقينى فقتلنى معه ولا أبقى بعده ، وأما قولك لى : العن قتلة عثمان ، فلعثمان ولد وخاصة وقرابة هم أخلق بلعنهم منى ، فإن شاءوا أن يلعنوا فليلعنوا وإن شاءوا أن يمسكوا فليمسكوا والسلام)

وكتب إلى عبد الله بن جعفر : (أما بعد فقد عرفت أثرتى إياك على من سواك ، وحسن رأيى فيك وفى أهل بيتك ، وقد أتانى عنك ما أكره ، فإن بايعت تشكر وإن تأب تجبر والسلام) .

وكتب إلى الحسين : (أما بعد ، فقد انتهت إلى منك أمور لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته من كان مثلك فى خطرك وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك ، وأتق الله ولا تردن هذه الأمة فى فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) .

فكتب إليه الحسين عليه السلام : (أما بعد ! فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنه أنتهت إليك عنى أمور ، ولم تكن تظننى بها رغبة بى عنها ، وإن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى ، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عنى فإنما رقاه الملاقون المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الجميع . وكذب الغاوون المارقون ، ما أردت حربا ولا خلافا ، وإنى لأخشى الله فى ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلين ، حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم ، ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فقتلتهم ظلما وعدوانا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود

المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافا بعهده ؟ أو لست بقاتل عمرو بن الحمق الذى أخلقت وأبلت وجهه العبادة فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من سقف الجبل ؟ أو لست المدعى زيادا فى الإسلام ، فزعمت أنه ابن أبى سفيان ، وقد قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل ؟ سبحان الله يا معاوية لكأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك . أو لست قاتل الخضرمى الذى كتب إليه فيه زياد أنه على دين على كرم الله وجهه ، ودين على هو دين ابن عمه ﷺ الذى أجلسك مجلسك الذى أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم ، وقلت فيما قلت لا ترد هذه الأمة فى فتنة ، وإنى لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها ، وقلت فيما قلت انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى والله ما أعرف أفضل من جهادك ، فإن أفعله فإنه قربة إلى ربى ، وإن لم أفعله فأستغفر الله لدينى وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى . وقلت فيما قلت متى تكدنى أكدك ، فكدنى يا معاوية فيما بدا لك، فلعمرى لقديما يكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ، ولا تمحق إلا عملك ، فكدنى ما بدا لك ، وإتق الله يا معاوية ، واعلم أن لله كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة ، وأخذك بالتهمة ، وإمارتك صبيا يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، وما أراك إلا وقد أبقت نفسك ، وأهلكت دينك ، وأضعت الرعية والسلام) .

ثار الحسين للحق وفى الحق ، فلم يشرئب بعنقه إلى الخلافة، ولم يطالب بها ، ولكنه رأى منكرا فعزم على أن يقومه حتى

يستقيم أمر المسلمين . وبدأ كأنه بدأ فى تنفيذ وصية أبيه العظيم بأن يكون للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، وأن يعمل بما فى الكتاب ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

***

وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذا بغلظة وشدة ، ولا يدع أحدا من المهاجرين وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره أن لا يحرك هؤلاء النفر ولا يهيجهم .

وأخذ سعيد بن العاص يدعو ليزيد ويحاول أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايعه أحد فكتب إلى معاوية : (إنه لم يبايعنى أحد ، وإنما الناس تبع لهؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعا ، ولم يتخلف عنك أحد).

ورأى معاوية أن ينطلق إلى المدينة ليقابل هؤلاء النفر . فقدمها حاجا ، فلما دنا منها خرج إليه الناس يتلقونه ما بين راكب وماش، فلما رأى الناس تهللت أساريره وقال متملقا :

ـ أهل المدينة ! ما زلت أطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم حتى انطوى البعيد ، ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن يتاق إليه .

فرد عليه القوم :

ـ بنفسك ودارك ومهاجرك ، أما إن لك منهم كأشفاق الحميم البر والحفى .

وسار حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين وعبد الله بن عباس، فقال معاوية

ـ مرحبا بابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه .

ثم انحرف إلى الناس فقال :

ـ هذان شيخا بنى عبد مناف .

وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذا مرة ويضاحك هذا أخرى حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته المشاة والنساء والصبيان يسلمون عليه ويسايرونه إلى أن نزل ، فمال الحسين إلى منزله ، ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد فدخله .

وأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن عليها ، فأذنت له وحده ، لم يدخل عليها معه أحد ، وعندها مولاها ذكوان ، فقالت عائشة :

ـ يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلا فاقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟

ـ ما كنت تفعلين ذلك .

ـ لم ؟

ـ لأنى فى بيت آمن ، بيت رسول الله .

وحمدت الله عائشة وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمتت ، فلم يخطب معاوية وخاف أن لا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالا :

ـ أنت أم المؤمنين العالمة بالله ورسوله ، دللتنا على الحق ، وحضضتنا على حفظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك ، وأن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم فى أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ؟ !

فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره ، فقالت:

ـ أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله فى هؤلاء

الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت .

وهم معاوية بالقيام فقالت له :

ـ يا معاوية قتلت حجرا وأصحابه العابدين المجتهدين .

ـ دعى هذا ، كيف أنا فى الذى بينى وبينك وفى حوائجك ؟

ـ صالح .

ـ فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا .

ثم خرج ومعه ذكوان ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشى ويقول:

ـ تالله إن رأيت اليوم قط خطيبا أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

ثم مضى حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين بن على فخلا به ، ثم أرسل بعده إلى الزبير فخلا به ، ثم إلى ابن عمر ، ثم إلى عبد الرحمن ابن أبى بكر، وبقى معاوية يومه ذلك يعطى الخواص ، فلما كان صبيحة اليوم الثانى أمر بفراش فوضع له ، وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاءه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية وعمامة دكناء وقد أسبل طرفها بين كتفيه وقد تغلف وتعطر فقعد على سريره ، وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب .

وأرسل إلى الحسين وابن عباس ، فسبق ابن عباس ، فلما دخل وسلم عليه أقعده فى الفراش على يساره ، فحادثه مليا ثم قال :

ـ يا بن عباس ، لقد وفر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف ودار الرسول عليه السلام .

ـ نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، وحظنا من القناعة بالبعض والتجافى عن الكل أوفر .

وجعل الرجلان يتحاوران حتى أقبل الحسين ، فلما رآه

معاوية جمع له وسادة كانت على يمينه ، فدخل الحسين وسلم ، فأشار اليه فأجلسه عن يمينه ، فدخل الحسين وسلم ، فأشار إليه فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة ، فسأله معاوية عن حال بنى أخيه الحسن فأخبره ، ثم ابتدأ معاوية فقال :

ــ أما بعد ، فالحمد لله ولى النعم ومنزل النقم ، وأشهد أن لا إله إلا الله المتعالى عما يقول الملحدون علوا كبيرا ، وأن محمدا عبده المختص المبعوث إلى الجن والإنس كافة لينذرهم بقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فأدى عن الله ، وصدع بأمره وصبر عن الأذى فى جنبه ، حتى أوضح دين الله وأعز أولياءه ، وقمع المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون ، فمضى صلوات الله عليه وقد ترك من الدنيا ما بذل له، وإختار منها الترك لما سخر له ، زهادة وإختيار لله ، وأنفة واقتدار على الصبر ، بغيا لما يدوم ويبقى ، فهذه صفة الرسول ﷺ ثم خلفه رجلان محفوظان وثالث مشكوك ، وبين ذلك خوض طال ما عالجناه مشاهدة ومكافحة ومعاينة وسماعا ، وما أعلم منه فوق ما تعلمان ، وقد كان من أمر يزيد ما ستقتما إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية من سد الخلل ولم الصدع بولاية يزيد ، بما أيقظ العين وأحمد الفعل ، هذا معناى فى يزيد ، وفيكما فضل القرابة وحظوة العلم وكمال المرءوة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ما أعيانى مثله عندكما وعند غيركما من علمه بالسنة ، وقراءة القرآن والحلم الذى يرجح بالصم الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة قدم على الصديق والفاروق ومن دونهما من أكابر الصحابة وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل ، من لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة فى قرابة موصولة ولا سنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره وجمع بهم صلاتهم وحفظ عليهم فيئهم ، وقال

الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت .

وهم معاوية بالقيام فقالت له :

ـ يا معاوية قتلت حجرا وأصحابه العابدين المجتهدين .

ـ دعي هذا ، كيف أنا في الذي بيني وبينك وفي حوائجك ؟

ـ صالح .

ـ فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا .

ثم خرج ومعه ذكوان ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول:

ـ تالله إن رأيت اليوم قط خطيبا أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

ثم مضى حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين بن على فخلا به ، ثم أرسل بعده إلى الزبير فخلا به ، ثم إلى ابن عمر ، ثم إلى عبد الرحمن ابن أبي بكر، وبقي معاوية يومه ذلك يعطي الخواص ، فلما كان صبيحة اليوم الثاني أمر بفراش فوضع له ، وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاءه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية وعمامة دكناء وقد أسبل طرفها بين كتفيه وقد تغلف وتعطر فقعد على سريره ، وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب .

وأرسل إلى الحسين وابن عباس ، فسبق ابن عباس ، فلما دخل وسلم عليه أقعده في الفراش على يساره ، فحادثه مليا ثم قال :

ـ يا بن عباس ، لقد وفر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف ودار الرسول عليه السلام .

ـ نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، وحظنا من القناعة بالبعض والتجافي عن الكل أوفر .

وجعل الرجلان يتحاوران حتى أقبل الحسين ، فلما رآه

الموت إلا غمضة لا فتقدم على عمل محفوظ فى يوم مشهود ، ولات حين مناص .

ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ، ومنعتنا عن آبائنا تراثا، ولقد لعمر الله أورثنا الرسول عليه السلام ولادة ، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول ، فأذعن للحجة بذلك ورده الإيمان إلى النصف ، فركبتم الأعاليل ، وفعلتم الأفاعيل ، وقلتم كان أو يكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك ، فهناك فاعتبروا يا أولى الأبصار .

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له ، وقد كان ذلك لعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له ، وما صار لعمرو يومئذ أنف القوم إمرته وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله ، فقال ﷺ : لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيرى . فكيف يحتج بالمنسوخ من فعل الرسول فى أوكد الأحوال وأولاها بالمجتمع عليه من صواب ، أم كيف صاحبت بصاحب تابعا وحولك من لا يؤمن فى صحبته ، ولا يعتمد فى دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى سرف مفتون ، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقى فى دنياه ، وتشقى بها فى آخرتك ، إن هذا لهو الخسران المبين ، وأستغفر الله لى ولكم .

فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال :

ــ ما هذا يابن عباس ، ولما عندك أدهى وأمر .

فقال ابن عباس :

ــ لعمر الله إنها ذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء ، ومن البيت المهر فاله عما تريد ، فإن لك فى الناس مقنعا حتى يحكم الله بأمره وهوخير الحاكمين .

فقال معاوية :

ــ أعود الحلم التحلم ، وخيرة التحلم عن الأهل ، انصرفا فى

ولم يقل معه ، وفى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فسهلا بنى عبد المطلب ، فأنا وأنتم شعبا نفع وجد ، وما زلت أرجو الإنصاف فى إجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما ، فردا على ذى رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة فى عتابكما ، وأستغفر الله لى ولكما .

فتيسر ابن عباس للكلام ، ونصب يده للمخاطبة فأشاراليه الحسين وقال :

ـ على رسلك ، فأنا المراد ونصيبى فى التهمة أوفر .

فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين ، فحمد الله وصلى على رسول الله ثم قال :

ـ أما بعد يا معاوية فلن يؤدى القائل وإن أطنب فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع جزءا ، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكب عن إستبلاغ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ، فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت، وإستأثرت حتى أجحفت ، ومنعت حتى بخلت ، وجرت حتى جاوزت ، ما بذلت لذى حق من أتم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من إكتماله وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس فى يزيد كأن تصف محجوبا ، أو تنعت غائبا ، أو تخبر عما كان ما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش ، والحمام السبق لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهى تجده ناصرا ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحت تقدح باطلا فى جور ، وحنقا فى ظلم ، حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين

وكان الذين أبوا البيعة منهم من كان أجدر أن يصله ، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له :

فقام الحسين فقال

ــ والله لقد تركت من هو خير منه أبا وأما ونفسا .

فقال معاوية :

ــ كأنك تريد نفسك .

ــ نعم ، أصلحك الله .

ــ إذا أخبرك ، أما قولك خير منه أما ، فلعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها من قريش لكان لنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله ﷺ ، ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ، فأمك لعمر الله خير من أمه ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أبيك .

ــ حسبك جهلك ، آثرت العاجل على الآجل .

ــ وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفسا ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك .

ــ هذا هو الإفك والزور ، يزيد شارب الخمر ومشترى اللهو خير منى ؟!

ــ مهلا عن شتم ابن عمك ، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك .

ثم التفت معاوية إلى الناس وقال :

ــ أيها الناس قد علمتم أن رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحدا فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظرا للمسلمين . فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما

حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وإلى عبد الله ابن عمر وإلى عبد الله بن الزبير فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال :

ــ يا عبد الله بن عمر ، قد كنت تحدثنا أنك لا تحب أن تبيت ليلة وليس فى عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها ، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى فى تفريق ملئهم ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس بيعتهم فى أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

فتكلم عبد الله بن عمر فقال أما بعد يا معاوية ، لقد كانت قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ليس ابنك بخير من ابنائهم ، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك ، فلم يحابوا فى هذا الأمر أحدا، ولكن إختاروا لهذا الأمة حيث علموهم ، وأن تحذرنى أن أشق عصا المسلمين وأفرق ملأهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل فيه أمة محمد .

ــ يرحمك الله ، ليس عندك خلاف .

ودار الحوار بين معاوية وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير ثم انصرف الجميع ، واحتجب معاوية عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادى أن ينادى فى الناس أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس فى المسجد ، وقعد الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير حول المنبر ، فصعد معاوية المنبر فقال :

ــ يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها ببيعته فبايع الناس جميعا وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقُلت بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه ،

الناس من أهل الشام فقالوا :

ــ يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم ريب فخل بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم .

فقال معاوية :

ــ سبحان الله ، ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام ، لا أسمع ذكرا بسوء فإنهم قد بايعوا وسلموا وارتضونى فرضيت عنهم رضى الله عنهم .

وإرتحل معاوية إلى مكة وقد أعطى الناس أعطياتهم وأجزل العطاء ، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ، ولم يخرج لبنى هاشم جائزة ولا عطاء ، فخرج عبد الله بن عباس فى أثره حتى لحقه بالروحاء فجلس ببابه ، فجعل معاوية يقول :

ــ من بالباب ؟

فقال :

ــ عبد الله بن عباس .

فلم يأذن لأحد ، فلما إستيقظ قال :

ــ من بالباب ؟

فقيل :

ــ عبد الله بن العباس .

فدعا بدابته فأدخلت إليه ، ثم خرج راكبا ، فوثب إليه عبد الله بن عباس ، فأخذ بلجام البغلة ثم قال :

ــ أين تذهب ؟

ــ إلى مكة .

ــ فأين جوائزنا كما أجزت غيرنا ؟

فأومأ اليه معاوية فقال :

ــ والله ما لكم عندى جائزة ولا عطاء حتى يبايع صاحبكم .

ــ فقد أبى ابن الزبير فأخرجت جائزة بنى أسد ، وأبى عبد

حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وإلى عبد الله ابن عمر وإلى عبد الله بن الزبير فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال :

ـ يا عبد الله بن عمر ، قد كنت تحدثنا أنك لا تحب أن تبيت ليلة وليس فى عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها ، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى فى تفريق ملئهم ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس بيعتهم فى أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

فتكلم عبد الله بن عمر فقال أما بعد يا معاوية ، لقد كانت قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ليس ابنك بخير من ابنائهم ، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك ، فلم يحابوا فى هذا الأمر أحداء ولكن إختاروا لهذا الأمة حيث علموهم ، وأن تحذرنى أن أشق عصا المسلمين وأفرق ملأهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل فيه أمة محمد .

ـ يرحمك الله ، ليس عندك خلاف .

ودار الحوار بين معاوية وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير ثم انصرف الجميع ، واحتجب معاوية عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادى أن ينادى فى الناس أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس فى المسجد ، وقعد الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير حول المنبر ، فصعد معاوية المنبر فقال :

ـ يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها ببيعته فبايع الناس جميعا وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقُلت بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه ،

فرضى سعيد وخرج مغتبطا ، وبقى الحسين فى المدينة متحفزا ليثور ثورته الكبرى ضد الظلم والطغيان .

ــ ١٤ ــ

بات يزيد ليلة مؤرقا ، فقد كان شارد اللب يفكر فى أرينب بنت إسحاق ، إن عينيه لم تقعا عليها ، وقلبه لم يخفق لرؤياها ، ولكنه خفق لما سمع بجمالها وحسنها الرائع الأخاذ ، فلو أن أرينب لم تكن فى كنف رجل لبعث فى طلبها ولأجزل لها المال حتى ترضى ، ولكنها كانت زوجة عبد الله بن سلام ، وقد كان واليا من ولاتهم بالعراق .

وحاول يزيد أن يصرف ذهنه عن ذكرها ، ولكن فكره كان يجسم الجمال في مخيلته ويصوره له أرينب بنت إسحاق ، فما من جمال هام به يوما إلا تخيله فيها ، وما من جمال اشتهاه أو حسن سمع به إلا صوره له الفكر وأوحى إليه أنه أرينب حبيبة الفؤاد . وهام يزيد بصورة متخيلة من الحسن والجمال صنعها له الوهم والخيال فخفق القلب ، وشغل البال .

وفتن يزيد بأرينب ، فكان إذا خلا بنفسه يهيم فى عوالم الخيال فيزداد شغفا بأرينب التى خلقها لنفسه بنفسه ، وتمدد فى سريره وقد شخص ببصره إلى لاشىء ، ثم زفر زفرة طويلة خرجت من صدر ضيقته الكروب . فأحس رقيق وصيف معاوية أن يزيد فى ضيق .

فقال فى عجب :

ــ ما يهمك ؟

ــ لا شىء .

ــ يخيل إلى أنك مكروب .

وقع الناس فيه من الإختلاف ، ونظرا لهم بعين الإنصاف .

فقام عبد الله بن الزبير فقال :

ـ إن رسول الله ﷺ قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر وهو أقصى قريش منه نسبا ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع ما صنع عمر تختار رهطا من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل .

وانصرف معاوية ذاهبا إلى منزله ، وأمر من حرسه وشرطته قوما أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة ، وهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبى بكر ، فلما اجتمعوا عنده التفت إلى جنده وقال :

ـ إنى خارج العشية إلى أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا ، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقنى أو يكذبنى فيه فلا ينقضى كلامه حتى يطير رأسه .

فلما كان العشى خرج معاوية وخرج هؤلاء النفر وهو يضاحكهم ويحدثهم وقد ألبسهم الحلل ، فألبس ابن عمر حلة حمراء ، وألبس الحسين حلة صفراء ، وألبس عبد الله بن عمر حلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حلة يمانية .

ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم ، وإنهم بايعوا، فقال :

ـ يا أهل الشام ، إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين طيعين ، وقد بايعوا وسلموا .

وظل القوم سكوتا لم يتكلموا شيئا حذر القتل ، فوثب

ـ علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل .

ـ فأين حجاك ومروءتك وتقاك ؟ !

ـ قد يغلب الهوى على الصبر والحجا .

ـ اكتم يا بنى أمرك بحلمك وأستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن .

ووقع أمر يزيد من معاوية موقعا ملأه هما ، وأوسعه غما ، فأخذ فى الحيلة والنظر ، فبيت النية على اتباع أساليب الغدر والخداع ، ولطالما اتبعها حتى بلغ مأربه .

كتب إلى عبد الله بن سلام : (أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمرحظك فيه كامل ولا تتأخر عنه) فأعد عبد الله بن سلام عدته ، وانطلق من العراق إلى الشام تخايل له الأمانى والآمال .

ودخل على معاوية فأكرمه وبالغ فى تكريمه ، وأعد له منزلا فخما ونقله إليه ، وجلس معاوية إلى أبى الدرداء وأبى هريرة وقال لهما :

ـ إن ابنتى قد كبرت وأريد تزويجها ، وقد رضيت عبد الله ابن سلام لدينه وشرفه وفضله وأدبه . وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى ، ولكن أرجو أن لا تخرج عن رأيى إن شاء الله تعالى .

فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام ، ودخل معاوية على ابنته فقال لها :

ـ إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله بن سلام وإنكاحى إياك منه ، وحضاك على المسارعة إلى رضائى فقولى لهما : عبد الله بن سلام كفء كريم ، فغير أن تحته أرينب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ولست بفاعلة حتى يفارقها ،

الله بن عمر فأخرجت جائزة بنى عدى ، فما لنا أن أبى صاحبنا وقد أبى صاحب غيرنا .

ـ لست كغيركم ، لا والله لا أعطيكم درهما حتى يبايع صاحبكم .

ـ أما والله لئن لم تفعل لألحقن بساحل من سواحل الشام ثم لأقولن ما تعلم ، والله لأتركنهم عليك خوارج .

ـ لا بل أعطيكم جوائزكم .

فبعث بها من الروحاء ومضى راجعا إلى الشام ، فلما قدم الشام أتاه سعيد بن عثمان بن عفان فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، علام تبايع يزيد وتتركنى ؟ فوالله لتعلم أن أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وأنا خير منه ، وإنك إنما نلت ما أنت فيه بأبى .

فضحك معاوية وقال :

ـ يا بن أخى ، أما قولك أن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية ، وأما قولك أن أمك خير من أمه ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فإنما هو الملك يأتيه الله من يشاء ، قتل أبوك رحمه الله ، فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منه عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد ، ولكن دعنى من هذا وسلنى أعطك .

ـ يا أمير المؤمنين ، لا يعدم يزيد مزكيا ما دمت له ، وما كنت لارضى ببعض حقى دون بعض ، فإذا أبيت فاعطنى مما أعطاك الله .

ـ لك خراسان .

ـ وما خراسان ؟ !

ـ إنها لك طعمة وصلة رحم .

الله رضانا .

وكتب إلى ابنه يزف إليه خبر ما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرينب .

وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول عليها وقال

— لم يكن لى أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى فى نفسها .

فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام ليسراها بذلك ، وانتظرا موافقتها ولكنها قالت :

— جف القلم بما هو كائن ، ولا أنكر شرفه وفضله ، وإنى سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ولا قوة إلا بالله ، فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب .

وذاع خبر طلاق عبد الله بن سلام وخطبته ابنة معاوية ، وانتظر الناس يوم الزواج ، وراحت الأيام تمر ، فقلق ابن سلام واستحث أبا الدرداء وأبا هريرة ، فدخلا على ابنة معاوية فقالا :

— لقد أتينا لما أنت صانعة فى أمرك ، وأن تستخيرى الله يخرلك فيما تختارين ، فإنه يهد من استهداه ويعطى من اجتزاه وهو أقدر القادرين .

— الحمد لله ! أرجو أن يكون الله قد خار لى ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي مع إختلاف من استشرته فيه، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله .

وعلم عبد الله بن سلام أنه خدع ، فهلع واشتد هلعه وطال جزعه ! ولكن ما جدوى الجزع فقد خاب أمله ، وطاش سهمه ، وفقد درة غالية لطمعه ، خدعه معاوية ولطالما خدع أناسا قبله ، وسخط الناس على ما أتاه أمير المؤمنين ،وأكثروا لومه ، ولكنه نفى عن

ـ طعن القلب .

ـ أفصح .

ـ تحدث الناس بجمال أرينب بنت إسحاق ، فوقع منى بموقع الهوى فيها ، فلم يزل ما وقع فى خلدى ينمو ويعظم فى صدرى حتى عيل صبرى .

وصمت يزيد ليجتر الصورة المتخيلة للجمال فى هدوء مشوب بحزن وضيق ، وطأطأ رقيق بصره ، وجعل فكره يعمل فلم يجد خيرا من مفاتحة أمير المؤمنين فى الأمر ، فيزيد يتألم فى صمت ، ومعاوية لا يشعر بما يحس به ابنه الحبيب من كرب ، فنهض وتوجه فى سكون الليل نحو سيدة معاوية ، وكان غير محجوب عنه ، ولا محبوس دونه ، فلما وقع بصر معاوية على رقيق علم أنه ما جاء به فى هجع الليل إلا أمر ، فقال معاوية :

ـ ما ورائك ، وما جاءبك ؟

ـ أصلح الله أمير المؤمنين ، إن يزيد يقاسى من وجده .

فنظر معاوية إلى رقيق فى دهشة ، فقال رقيق :

ـ جافاه النوم ، وأضحى حليف السهاد .

وأحس معاوية قلقا ، فإنه يحب ابنه حتى إنه تخطى الناس كلهم فى تقديمه ، ونصبه إماما على أصحاب رسول الله وهو موقن أن فيهم من يفضله ، فقال فى لهفة :

ـ على به . فبعث إليه ، فلما جاءه الرسول قال :

ـ أجب أمير المؤمنين .

فاقبل يزيد حتى دخل على أبيه ثم جلس ، فقال معاوية :

ـ ماذا بك يا بنى ؟ .

فبث له شأنه وقد خنقه من شدة الحياء الشرق ، فأطرق معاوية وقد بان فى وجهه الهم ثم قال :

ـ مهلا يا يزيد .

سفيان ، فلما أدخل على أرينب قال :

ـ كان مما سبق لك وقدر عليك الذى كان من فاق عبد الله بن سلام إياك ولعل ذلك لا يضرك ، وأن يجعل الله لك فيه خيرا كثيرا . قد خطبك أمير هذه الأمة وابن الملك وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية ، وابن بنت رسول الله ﷺ وابن أول من آمن به من أمته ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وقد بلغك سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطبا عليهما فاختارى أيهما شئت .

فسكتت طويلا ثم قالت :

ـ يا أبا الدرداء ، لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى أشخصت فيه الرسل إليك واتبعت رأيك ولم أقطعه دونك على بعد مكانك ونأى دارك ، فأما اذ كنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله إليك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، فليس أمرهما عليك خافيا .

ـ أيتها المرأة ، إنما على أعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك .

ـ عفا الله عنك ، إنما أنا بنت أخيك ومن لا غنى بها عنك .

فأطرق أبو الدرداء قليلا ثم قال :

ـ أى بنية ، ابن رسول الله أحب إلى وأرضاهما عندى ، والله أعلم بخيرهما لك ، وقد كنت رأيت رسول الله ﷺ واضعا شفتيه على شفتى الحسين ، فضعى شفتيك حيث وضعهما رسول الله .

ـ قد اخترته ورضيته .

وتزوج الحسين من أرينب ، فحنق عليه معاوية ، وازداد حقد يزيد له ، فقد حرمه الحسين من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، واستولى على أرينب بعد أن أطمأن إلى دهاء أبيه وحسب أنها أصبحت يسيرة المنال .

وساء حال عبد الله بن سلام ، وقل ما فى يده ، فتذكر أنه

ووصل أبو الدرداء وأبو هريرة إلى عبد الله بن سلام فأعلماه بما قال لهما معاوية . فسر وفرح ، وردهما خاطبين عنه ، فلما مثلا بين يدى معاوية قال :

ـ إنى كنت قد أعلمتكما أننى جعلت لها شورى ، فادخلا عليها وأعلماها بما رأيت لها .

جلست بنت معاوية وقد طأطأت رأسها وقالت فى صوت خفيض :

ـ عبد الله بن سلام كفء كريم ، غير أن تحته أرينب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبنى عليه فأفارق الرجاء وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها .

وانطلق أبو هريرة وأبو الدرداء إلى ابن سلام وأبلغاه ما قالته ابنة معاوية ، فعلم أنه لا يحول بينه وبينها إلا أرينب ففارق زوجته وأشهدهما على طلاقها وبعثهما خاطبين أيضا . وبات عبد الله بن سلام يرقب سفارتهما نافد الصبر ، فإنه ليطمع فى أن يوثق بينه وبين أمير المؤمنين الأسباب .

ودخلا على أمير المؤمنين متهللى الوجه ، فقد زالت العقبة وقال أبو الدرداء :

ـ فارق عبد الله امرأته طلبا لما يرضى ابنة أمير المؤمنين ، وخروجا عما يشجيها .

فأحس معاوية نشوة تشيع فى نفسه ، ولكنه تظاهر بالعبوس والتقطيب ، وقال فى إنكار :

ـ ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره .

ونظر إليهما وقال :

ـ إنصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه وتأخذان إن شاء

فادخل يا هذا عليها توف مالك منها .
ـ أو تأمر بدفعه إلى جعلت فداك .
ـ لا حتى تقبضه منها كما دفعته إليها وتبرئها منه إذا أدته .
وتقدم الحسين وعبد الله بن سلام ، وكان عبد الله يحس قلبه يثب فى صدره حتى ليكاد يقفز من فيه ، واعتراه ارتباك فقد كان يهواها ويخشى أن يخونه تجلده ، فيفصح عن لواعج النفس لهفة القلب . ودخلا عليها فأحس عبد الله نفسه تذوب .
وقال الحسين فى ثبات :
ـ هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته ، فأديها إليه كما قبضتها منه .
فانطلقت أرينب مضطربة الخطوة وأخرجت البدرات وقد لاح فى وجهها الأسى والحزن ، وظهر على وجه عبد الله ما يصطرع فى جوفه من انفعالات ، ولمح الحسين ما يقاسيانه من وجد ، فانسل فى خفة وتركهما وحيدين ، ووضعت البدرات بين يديه وقالت :
ـ هذا مالك .
ففض عبد الله خاتم بدرة فحثا لها من ذلك الدر حثوات وقال فى رقة :
ـ خذى ، فهذا قليل منى لك .
ولم يقدرا أن يستمسكا ، فاستعبرا حتى تعالت أصواتهما بالبكاء ، فرق لهما قلب الحسين فدخل عليهما وقال :
ـ أشهد الله أنها طالق ثلاثا ، اللهم إنك تعلم أنى لم استنكحها رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لبعلها. فانتشرت الغبطة فى صدر عبد الله ، ورفرف على الحبيبين أمن ، وأراد أن يرد إليه بعض ما ساقه إليها من مهر عظيم فأبى وقال :
ـ الذى أرجوه عليه من الثواب خير لى منه .

نفسه الخداع فى مهارة عرفت عنه حتى كاد أن يصدقه الناس ،

وراح عبد الله بن سلام يتحدث عن خدعة معاوية ، ويخوض فيه ، فضايقه ذلك فنبذه ، وقطع جميع روافده عنه .

ووجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لأرينب على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدمها وبها الحسين بن على ، فلما علم بوجوده قال:

ـ ما ينبغى لذى عقل أن يبدأ بشىء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة إذا دخل موضعا هو فيه .

فقصد حتى أتى الحسين ، فلما رآه الحسين قام إليه وصافحه إجلالا له ثم قال :

ـ مرحبا بصاحب رسول الله ﷺ وجليسه ، يا أبا الدرداء أحدثت لى رؤيتك شوقا إلى رسول الله ﷺ وأوقدت مطلقات أحزانى عليه فإنى لم أر منذ فارقته أحدا كان له جليسا وإليه حبيبا إلا هملت عيناى وأحرقت كبدى أسى عليه ، وصبابة اليه .

ففاضت عينا أبى الدرداء لذكر رسول الله وقال :

ـ جزى الله لبانة أقدمتنا عليك وجمعتنا بك خيرا.

ـ والله إنى لذو حرص عليك ولقد كنت بالاشتياق إليك .

ـ وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد أرينب بنت أسحاق ، فرأيت أن لا أبدأ بشىء قبل إحداث العهد بك والتسليم عليك .

ـ لقد كنت ذكرت نكاحها ، وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء إقرائها ، فلم يمنعنى من ذلك إلا تخيير مثلك ، فقد أتى الله بك فاخطب رحمك الله على وعليه فلتختر من اختاره الله لها ، وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، واعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه .

ـ أفعل إن شاء الله .

وخرج أبو الدرداء ليخطب على حفيد الرسول وحفيد أبى

والرابع الحسين بن على ، فإن الناس تدعوه حتى يخرج عليك فإن ظفرت به فاحفظ قرابته من رسول الله .

ومات معاوية فضجت دمشق لموته ، وخرج الضحاك بن قيس وكان صاحب جيشه ومعه أكفانه ، فصعد المنبر خطيبا فقال :

ــ إن معاوية كان عبدا لله فنصره الله على عدوه ، وفتح به بلاده ، وقد دعاه إليه فأجابه ، وهذه أكفانه وها نحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ، ثم ننصرف عنه ونخلى بينه وبين ربه ، فمن أحب أن يشاهد فليحضر وقت الظهر .

وأرسل إلى يزيد رسولا يخبره بهلاك أبيه ، فدخل يزيد داره وقد تملكه حزن شديد ، ولم يخرج إلى الناس إلا بعد ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع خرج أشعث أغبر ، فلم يدروا يعزونه أم يهنئونه ، فتقدم إليه رجل فقال :

ــ أجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزيت عظيما ، فاشكر الله على عطيته ، وأصبر على عظيم رزيته .

ثم دخل عليه الضحاك بن قيس وقال :

ــ السلام عليك يا خليفة المسلمين ، أصبحت خليفة ورزيت بخليفة ، وهنيت بالعطية ، وأجرك الله على الرزية .

ودفع إليه بوصية معاوية ، ففضها وقرأها ، فغامت عيناه بالدموع ، ثم بكى أحر بكاء ، وبقى مدة يستعيد هدوءه ، ثم خرج والناس من حوله حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر فقال :

ــ أيها الناس ، إن معاوية بن أبى سفيان كان عبدا لله استخلفه فى الأرض فعاش بعمل ومات بأجل ، ولقد كان محمودالحياة ، مفقود الوفاة ، والآن قد صار إلى ربه ، إن يعذبه فبذنبه ، وإن يغفر له فهو أرحم الراحمين ، وقد وليت هذا الأمر من بعده ، وقد أوصانى بالإحسان إليكم والتجاوز عن مسيئكم ،

ترك عند أرينب قبل فراقه إياها بدرات مملوءة درا . فخرج إلى العراق وفكر فى أن يأتى أرينب يطلب ماله ، ولكنه خشى جحودها عليه لسوء فعله بها ، وطلاقه إياها على غير شىء أنكره ، وتصبر وانتظر ، واشتدت حاجته إلى المال فقابل الحسين وقال له:

ـ قد علمت ـ جعلت فداك ـ الذى كان من قضاء الله فى طلاق أرينب بنت أسحاق ، وكنت قبل فراقى إياها قد استودعتها مالا عظيما ، وكان الذى كان ولم أقبضه ، ووالله ما أنكرت منها فى طول ما صحبتها فتيلا ، ولا أظن بها إلا جميلا ، فذكرها أمرى، وأحضضها على الرد على ، فإن الله يحسن عليك ذكرك ويجزل به أجرك .

وانصرف الحسين إلى أهله فقال :

ـ قدم عبد الله بن سلام .

فظهر على أرينب ارتباك مشوب باهتمام ، ولم يفت الحسين ما أعتراها فقال :

ـ وهو يحسن الثناء عليك ويجمل النشر عنك فى حسن صحبتك ، وما آنسه قديما من أمانتك فسرنى ذلك وأعجبنى .

فبدا عليها اضطراب المحب إذا ما ذكر أمامه الحبيب بعد الغيبة والفراق وقال الحسين :

ـ وذكر أنه كان أستودعك مالا قبل فراقه إياك فأدى إليه أمانته ، وردى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقا ، ولم يطلب إلاحقا فقالت أرينب فى صوت فيه رعدة خفيفة :

ـ صدق ، وقد والله استودعنى مالا لا أدرى ماهو ، وإنه لمطبوع عليه بطابعه ما أخذ منه شىء إلى يومه هذا .

ولقى عبد الله بن سلام فقال له :

ـ ما أنكرت مالك وزعمت أنه لكما دفعته إليها بطابعك ،

– أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول فى الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإن هم علموا بموت معاوية وثب كل أمرى منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه ، أما ابن عمر فانى لا أراه يرى القتال ، ولا يحب أن يولى على الناس ألا أن يدفع إليه هذا الأمر عفوا . فنادى الوليد بن عتبه عبيد بن عمر بن عثمان وهو غلام حدث وطلب منه أن ينطلق إلى المسجد ليدعو الحسين وابن الزبير، فخرج الغلام حتى أتى المسجد فألفاهما جالسين فأتاهما فقال :

– أجيبا الأمير يدعوكما .

فالتفت كل من الحسين وابن الزبير إلى الآخر ، وقد بان فى وجهه التساؤل ، فإن الغلام أتاهما فى ساعة ما كان الوليد يجلس فيها للناس ، ولا يأتيان فى مثلها ، فالتفت ابن الزبير إلى الغلام وقال :

– أنصرف ! الآن نأتيه .

ثم أقبل أحدهما على الآخر ، فقال ابن الزبير للحسين :

– ظن فيم تراه بعث إلينا فى هذه الساعة التى لم يكن يجلس فيها ؟

– قد ظننت ، أرى طاغيتهم قد هلك ، فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو فى الناس الخبر .

– ما أظن غيره .

وسكت ابن الزبير برهة قال :

– فما تريد أن تصنع عليه .

– أجمع فتيانى الساعة ، ثم أمشى إليه ، فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ، ثم دخلت عليه .

ـ ١٥ ـ

ـ دارت عجلة الزمن لتطوى من انتهى أجله ، وتنشر من بزغ نجمه ، فقد مرض معاوية وقربت نهايته ، واشتد به الوجع والتمس يزيد ابنه ، ولكنه لم يجده فقد خرج فى رحلة من رحلات الصيد ، فدعا بدواة وبياض و كتب إليه كتابا يقول فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى خلق كل شىء لميقات يوم معلوم وأجل محتوم ، ولو خلد فى هذه الدنيا أحد لكان سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله أولى بالبقاء. يا بنى أوصيك بوصية فأنت بخير ما دمت على حفظها ، أوصيك بأهل الشام فإنهم منك وأنت منهم ، فمن قدم عليك منهم فأكرمه ، ومن غاب فاطلع على خبره ، فإذا دهمك عدو فسر بهم ، فإذا ظفرت فردهم إلى بلدهم ، فإذا أقاموا فى غير أوطانهم تخلقوا بغير أخلاقهم ، ومن قدم عليك من الحجاز فاستوص به خيرا ، وانظر يا بنى إلى أهل العراق فى أمورهم ، فإن سألوك أن تعزل عنهم فى كل يوم عاملا فاعمل ، فإن ذلك أهون من شق العصا على السلطان ، واعلم يا بنى أنى قد وطأت لك البلاد ، وذللت لك العباد ، ولست أخشى عليك إلا من أربعة رجال ، فإنهم لا يبايعوك وينازعوك فى هذا الأمر ، أولهم عبد الرحمن بن أبى بكر فإنه صاحب دنيا فمده بدنياه ودعه وما يريد يصر لا لك ولا عليك ، والثانى عبد الله بن عمر رضى الله عنه فإنه صاحب قرآن ومحراب ، وقد تخلى عن الدنيا ورغب فى الآخرة ولا أظنه ينازعك فى هذا الأمر ولا يريده ، والثالث عبد الله بن الزبير سيراوغك مراوغة الثعلب ، ويجثو لك جزوة الأسد ، فإن حاربك فحاربه ، وإن سالمك فسالمه ، وإن أشار عليك فاقبل منه مشورته ،

ــ إن فاتك الثعلب لم تر إلا غبارا فاحذر أن يخرج حتى يبايعك أو فاضرب عنقه .

فوثب عند ذلك الحسين وقال :

ــ يابن الزرقاء ، أنت تقتلنى أم هو ، كذبت والله وأثمت .

ثم قام من عندهما وانطلق إلى منزله ، فقال مروان للوليد :

ــ عصيتنى وخالفت أمرى ، والله لا قدرت على مثلها أبدا .

ــ وبخ غيرك يا مروان ، إنك اخترت لى التى فيها هلاك دينى ، والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنى قتلت حسينا . حسبنا الله ، أقتل حسينا أن قال لا أبايع ، والله إنى لا أظن امرءا يحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

فقال مروان متهكما :

ــ فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت .

وذاع خبر موت معاوية فى مكة ، وكان ابن عباس فى المسجد الحرام جالسا قد وضع له الخوان وعنده نفر ، فاقترب منه الناس فقالوا :

ــ أما علمت بهذا الخبر يا بن عباس ؟

ــ وما هو ؟

ــ هلك معاوية .

ــ ارفع الخوان يا غلام .

وأطرق ابن عباس قليلا ثم قال :

ــ جبل تزعزع ثم مال بكلكله ، أما والله ما كان كمن كان قبله، ولم يكن بعده مثله . اللهم أنت أوسع لمعاوية فينا وفى بنى عمنا هؤلاء الذى لب معتبر أشتجرنا بيننا ، فقتل صاحبهم غيرنا، وقتل صاحبنا غيرهم ، وما أغراهم بنا إلا أنهم لا يجدون مثلنا ، وما أغرانا بهم إلاإنا لا نجد مثلهم ، كما قال القائل :

ولست والله معتذرا إليكم .

وكتب إلى ولاته بالأمصار أن يأخذوا البيعة له ، وكتب إلى عامله بالمدينة فى صحيفة كأنها أذن فأرة : (أما بعد ، فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاًشديداً ليست فيه رخصة) .

وبعث بالصحيفة مع رسول إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان عامله على المدينه ، فلما قرأها ظهر الهم على وجهه ، فراح يقطع الغرفة جيئا وذهوبا ، وآى الاضطراب بادية عليه ، وجعل يعبث بأصابعه فى لحيته ، ويفكر فيما يفعل بعد أن تلقى رسالة يزيد بهلاك أمير المؤمنين ، وأخذ هؤلاء النفر بالبيعة أخذا شديدا، أنه ولي المدنية من قبل معاوية ، وقد وقعت بينه وبين مروان بن الحكم مشادة ومشاتمة فبمن يستعين ، ممن يلتمس الرأى السديد ؟! لم يصبح الأمر أمر يزيد ، بل صار الأمر أمر بنى أمية جميعا ، فأنه لو سأل مروان العون لما تأخر مروان .

عظم على الوليد هلاك معاوية وما أمر به من أخذ هؤلا الرهط بالبيعة ، ففزع إلى مروان فبعث إليه يطلبه ، فجاء مروان فلما دخل وجلس قرأ الوليد :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد أبن عتبة ، أما بعد فإن معاوية كان عبدا من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له ، فعاش بقدر ، ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محمودا ، ومات بارا تقيا والسلام) .

فاسترجع مروان ، وترحم عليه ، وقرأ الوليد كتاب يزيد الذى يأمره فيه بأخذ أبن الزبير والحسين وابن عمر بالبيعة ، ورراح الحزب السفيانى يتدبر أمره فقال الوليد :"

ـ كيف ترى أن نصنع ؟

فأطرق مروان برهة ثم قال :

— ١٦ —

ودخل الحسين داره يفكر ويدبر أمره ، وأهمه فكره فما يستطيع أن يبايع ليزيد ، فلو بايع له لأقر الفسق والجور ، وثبت دعائم الظلم والطغيان ، ومكن للباطل . وما كان الحسين ليرضى أن يحيد عن الجادة ، وإن كان في ذلك تشريده وتشريد أهله أو هلاكه وهلاك ناصريه .

وراحت الذكريات تترادف في رأسه فتشد من أزره وتقوى من عزمه على الثورة ضد السلطان الجائر ، فجده العظيم فر بدينه من أتون مكة ؛ من وجه أبي سفيان واضطهاده ، وتحصن بالمدينة حتى إذا ما اشتد ساعده محق حزب أبي سفيان فقضى على الضلالة والكفر وتألق الحق الأبلج ، فلم لا يفر بدينه من وجه يزيد ويلوذ بمكة حتى إذا ما سنحت له الفرصة انقض على الجور فقوضه ، وسحق أنصار الرذيلة والفجور ؟

وبيت النيه على الخروج إلى مكة ، وكان في مقدوره أن يخرج وحده فيعز الطلب ويسهل عليه الفرار من وجه أعوان يزيد، ولكنه خشي إن خرج وحيدا أن ينكل عامل يزيد بأهله وهو يعلم حقد بني أمية الموروث لبني هاشم ؛ فعزم على أن يخرج بأهله جميعا ليجنبهم اضطهاد الأمويين ، ومعاينة بيعة الضلالة لخليفة مستهتر مثل يزيد .

وخرج إلى أهله يأمرهم بالتأهب للرحيل ، فتأهب أبناؤه وأبناء الحسن وأخوته وجل أهل بيته ومواليه ، وجاء إليه محمد ابن الحنفية وقال له :

— يا أخي ! أنت أحب الناس إلي ، وأعزهم علي ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بتبعتك عن يزيد بن

ـ أنى أخافه عليك إذا دخلت .

فقال الحسين فى ثقة :

ـ لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر .

وجمع الحسين إليه مواليه وأهل بيته ، ثم أقبل يمشى حتى أنتهى إلى باب الوليد وقال لأصحابه :

ـ إنى داخل ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته علا فافتحوا على باجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم .

فدخل الحسين فألفى الوليد ومروان جالسين ، فتظاهر بأنه لم يفطن إلى موت معاوية ، وشاء أن يفهمهما أنه يظن أنهما ما أرسلا اليه ألا ليصلح بينهما فقال :

ـ الصلح خير من القطيعة ، أصلح الله ذات بينكما .

فلم يجيباه فى هذا بشىء ، وجاء حتى جلس فأقرأه الوليد الكتاب ، ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة فقال حسين :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ،إنها لمصيبة عظيمة ولنا فيها شغل عن البيعة .

فقال الوليد :

ـ لا بد من ذلك .

ـ إن مثلى لا يبايع سرا . ،ولا أراك تجتزىء بها منى سرا دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية .

ـ أجل .

ـ فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمرا واحدا .

وكان الوليد رجلا يحسب العواقب فقال له :

ـ فانصرف أبا عبد الله وائتنا غدا مع الناس .

فلم يستطع مروان عدو بنى هاشم أن يكبت عواطفه ، وأن يدارى ما به ، فقال للوليد :

أحاسيس رهبة وحزن ، وتلفت قبل أن يخرج لفتة إلى القبر ، وألقى نظرة أخيرة طويلة كأنما يتزود منه لنهاية العمر فما يدرى أيعود إلى قبر الحبيب ثانية يزوره ، أم يلتقى بصاحب القبر فى جنات عرضها السموات والأرض .

وهاجر الحسين من مدينة جده ، فخرج منها خائفا يترقب ، قال : رب نجنى من القوم الظالمين .

وركب الحسين الجادة العظمى ، فخاف عليه أهل بيته خوفا شديدا ، فما يفعلون إذا ما دهمهم أعوان يزيد ، أيدعون الحسين يقع غنيمة باردة فى أيديهم ؟ كلا فما كانوا ليتخلوا عنه وإن بادوا عن بكرة أبيهم ، فقد كان الحسين حبيب قلوبهم . بل كان الروح التى تسرى فى أبدانهم ، ولولا حبهم الشديد له وتعلقهم به ما تركوا جميعا ديارهك الآمنة ليخرجوا معه لا يدرون ما يخبئه لهم الغد من أحداث ، وما قد ينزل بهم من متاعب و أهوال ، واستخفوا بالمخاطر ، وركبوا الصعاب إرضاء للحسين الحبيب ، وقد خرجوا جميعا راضى النفوس ، فهم على يقين من أن الحسين ما غضب إلا لله ، وما ثار إلا لإعلاء كلمة الحق .

كانوا جميعا يخافون عليه فقالوا له :

ـ لو سلكت الطريق لكان أصلح .

فقال :

ـ أتخافون الطلب ؟ .

ـ أجل .

ـ أخاف أن أحيد حذر الموت .

إذ المرء لا يحمى بنيه وعرضه
وعترته كان اللئيم المسيبا

ومن دون ما يبغى يزيد بنا غدا
نخوض بحار الموت شرقا ومغربا

ونضرب ضربا كالحريق مقدما

إذا ما رآه ضيغم فر مهربا

واستمر منطلقا حتى قابل عبد الله بن مطيع القرشى فقال له عبد الله :

ـ جعلت فداك ، إنى أنصحك إذا دخلت مكة فلا تبرحن منها ، فهى حرم الله والأمان للناس ، فأقم فيها ، وتألف أهلها ، وخذ البيعة على كل من دخلها من الناس ، وعدهم العدل ، وارفع الجور عنهم ، وأقم فيها خطباء تخطب وتذكر على المنابر شرفك وتشرح فضلك ، ويخبرونهم بأن جدك رسول الله ﷺ وآله وأباك على بن أبى طالب ، وأنك أولى بهذا الأمر من غيرك ، وإياك أن تذكر الكوفة فإنها بلد مشئوم قتل فيها أبوك ، ولا ترح من حرم الله تعالى فإن معك أهل الحجاز واليمن كلها . وسيقدم إليك الناس من الآفاق وينصرفون إلى أمصارهم ، وادعهم إلى بيعتك ، فاقبل نصيحتى وسر مسددا فوالله إن فعلت لترشدن .

ـ جزا ك الله عنى كل خير ، فإنى قابل نصيحتك .

ومضى حتى إذا ما لاحت له أرباض مكة ، نظر إلى السماء وقال فى ابتهال :

ـ اللهم خذ لى بحقى وقر عينى ، رب أهدنى سواك السبيل.

وهبط الحسين مكة ، البلدة التى يأمن فيها الطير مستجيرا بحرم الله ممن يريدون أخذه بالشدة لمبايعة يزيد ، وبقى عاكفا بأم القرى لا يدعو الناس إلى بيعته ، فما هاجر طلبا للسلطان بل هاجر فرار من الظلم والطغيان ، فما كان ليرضى أن يمالىء فى دينه ، وما كان ليقبل أن يبايع لمثل يزيد ليتحكم فى رقاب المسلمين .

وذاع فى مكة أن الحسين لم يبايع ليزيد ، وانتشر فى الأمصار أن ابن بنت رسول الله لائذ ببيت الله الحرام ممن

يريدون أن يرغموه على البيعة كرها ، فمالت قلوب الناس إليه ، وبذرت فى الصدور بذور المقت لبنى أمية وأعوانهم .

***

وبلغ أهل الكوفة وفاة معاوية ، وامتناع الحسين من البيعة ، فامتنعوا غن مبايعة يزيد ، وتذكر سليمان بن صرد ما قاله الحسين لما بايع الحسن لمعاوية : (ليكن كل رجل منكم حلسا من أحلاس بيته ما دام معاوية حيا ، فإنها بيعة كنت والله لها كارها ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم) . وها قد هلك معاوية ، فليكتبوا إلى الحسين يدعونه ، واجتمع رجال عند سليمان فقالوا :

ــ نكتب إلى الحسين .

فقال لهم سليمان :

ــ يا معشر الناس ، إن معاوية قد هلك ، وقد امتنع الحسين من البيعة ونحن شيعته وأنصاره ، فإن كنتم تعلمون أنكم تنصرونه وتجاهدون بين يديه فافعلوا ، وإن خفتم الوهن والتخاذل فلا تغروا الرجل .

ــ بل نقاتل عدوه .

ــ اكتبوا على اسم الله

فكتبوا إليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الحسين بن على بن أبى طالب من سليمان بن صرد الخزاعى والمسيب بن نجية ، ورفاعة ابن شدادا البجلى ، وحبيب بن مظاهر الأسدى ومن معه من المسلمين ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فإنا نحمد الله الذى لا اله الا هو ، ونصلى على محمد وآل محمد ، واعلم يابن محمد المصطفى وابن على المرتضى ، أن ليس لنا إمام غيرك

فاقدم إلينا ، لنا ما لك وعليك ما علينا ، فلعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى . واعلم أنك تقدم على جنود مجندة ، وأنهار متدفقة ، وعيون جارية ، فإن لم تقدم على ذلك فابعث إلينا أحدا من أهل بيتك يحكم بيننا بحكم الله تعالى ، وسنة جدك رسول الله ، واعلم أن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ولسنا نشهد معه جمعة ولا جماعة ، ولو أنك أقبلت إلينا لكنا أخرجناه إلى الشام والسلام)

وبعثوا الكتاب مع رسولين فخرجا مسرعين حتى قدما على الحسين ومعهما خمسون صحيفة ، وما انقضى يومان حتى وصل إليه كتاب آخر فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الحسين بن على بن أبى طالب . أما بعد ، فإنه لا إمام غيرك لنا ، يابن رسول الله العجل العجل) .

وما انقضى يومان آخران حتى بلغة آخر فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . قد أينعت الثمار ، فاقدم إلينا يابن بنت رسول الله مسرعا) وتواترت الكتب إليه فسأل الرسل عن أمر الناس فقالوا :

ـ إنهم كلهم معك .

وراح الحسين يفكر فى أمر هذه الكتب ، إنه خرج من المدينة فرارا من الظلم والاضطهاد ، وهاهم أهل العراق يدعونه لنصرته ، فلو أنه خرج إليهم لأشتد ساعده بهم ، ولناوأ الجور وحاربه حتى محقه وأقام دعائم العدل والإنصاف .

ها هم أهل العراق يدعونه فحق عليه أن يلبى دعوتهم ، فهم يدعونه إلى رشاد ، وله فى رسول الله أسوة ، فما دعاه أهل يثرب حتى لبى الدعوة وخرج إليهم وانتصر بهم على الباطل والضلال . ما كان للحسين أن يحجم وهو رجل الإقدام ، فكتب اليهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم : من الحسين بن على إلى الملأ من المؤمنين ، أما بعد فإن هانيا وسعيدا قدما بكتبكم ، وكانا آخر من قدما إلى من رسلكم ، وقد فهمت ما ذكرتموه أنه ليس لكم إمام غيرى ، وتسألونى القدوم إليكم ، ولعل الله يجمعكم على الحق والهدى ، وإنى باعث إليكم أخى وابن عمى المفضل عندى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وقد أمرته أن يكتب لى بحسن رأيكم وما أنتم عليه ، وأنا أقدم إليكم إن شاء الله) .

ودعا الحسين بمسلم بن عقيل ، وأمره بتقوى الله واللطف بالناس ، فإن رأى الناس مجتمعين على رأيه يعجل له بالخبر ، ودعا بدليلين يدلانه على الطريق .

وخرج مسلم والدليلان وأغذوا فى السير فدخلوا المدينة وصلوا بمسجد الرسول ثم أنطلقوا إلى العراق ، فلما توغلوا فى المسالك ، ضل الدليلان ونفد الماء فأصابهم عطش شديد وأحسوا جفافا فى حلوقهم ، وأخذوا يترنحون ويبحثون عن ماء وقد زاغت الأبصار ، وحل بهم إعياء شديد ، فسقط رجل ، ثم سقط آخر ، وظل مسلم يضرب فى الطريق وحده حتى بلغ قافلة كانت تمخر عباب الفضاء العريض .

وكتب مسلم إلى الحسين كتابا يقول فيه :

(أما بعد . فإنى أخبرك يا بن بنت رسول الله أنى قد أتيت مع الدليلين فضلا عن الطريق ، وأشتد العطش بهما فماتا وقد تطيرت من وجهى هذا ، فإن أردت أن تعفينى وتبعث غيرى فافعل) .

ووصل الكتاب إلى الحسين فكتب جوابه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين إلى عمه مسلم ابن عقيل ، إذا قرأت كتابى هذا فامض على ما أمرتك والسلام) .

— ١٧ —

جثم سواد الليل على الكوفة ، فأوى الناس إلى دورهم ، وأقفرت الطرق ، فانسل مسلم فى جنح الليل إلى دار سليمان ابن صرد وبات بها حتى إذا ما انفلق عمود الصبح همس أنصار الحسين بأن مسلما قد حضر ، فهرع الناس إليه ، فاقرأهم كتاب الحسين ، فانهمرت الدموع وجعلوا ينتحبون ثم قام رجل فقال :

— إنى لست أعلم ما فى قلوب الناس ، ولكن أخبرك بما فى نفسى ، إذا دعوتمونى أجبتكم ، وأضرب بسيفى عدوكم حتى ألقى الله عز وجل .

فقام رجل آخر فقال له :

— يرحمك الله ، فقد قضيت ما عليك ، وأنا والله على مثل ذلك .

وتدفق أهل الكوفة على دار سليمان بن صرد وجعلوا يبايعون مسلما حتى بايعه ثمانون ألف رجل .

ورأى رجل من أنصار يزيد تدفق الناس على دار سليمان فهرع إلى النعمان بن بشير وإلى الكوفة وقال له :

— إنك ضعيف أو مستضعف ، قد أفسدت البلاد .

فقال له النعمان :

— إن أكون ضعيفا وأنا فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون قويا فى معصية الله ، وما كنت لأهلك سترا ستره الله .

وخرج النعمان وصلى بالناس ثم قال :

— معاشر الناس ! إنى والله لا أقاتل من لا يقاتلنى ، ولا أتحرش بمن لا يتحرش بى ، فاحذروا الفتنة ، وشق العصا على السلاطين ، فإن صح ذلك عندى على أحد منكم لأضربن عنقه ولو

لم يكن لى ناصر ولا معين .

فلم يرق ذلك القول لنصير يزيد فقام إليه فقال :

ـ أيها الأمير ! إن هذا لا يكون إلا بالغشم والقهر وسفك الدماء ، وهذا الذى تكلمت به كلام المستضعفين .

ـ أكون من المستضعفين فى ذات الله ولا أكون من الظالمين .

فخرج نصير يزيد ثائرا ، ثم كتب إليه :

(من عبد الله الحضرمى إلى يزيد بن معاوية . أما بعد ، فإن مسلم بن عقيل ورد الكوفة وقد بايعه شيعة الحسين ، فإن كان لك فى الكوفة حاجة فأنفذ إليها رجلا قويا ، فإن النعمان ضعيف ويتضاعف)

وانطلق رسول ابن شعبة بأول كتاب يدعو يزيد إلى حرب الحسين .

قرأ يزيد الكتاب فاربد وجهه ، ودعا مولى له يقال له سرجون وقال :

ـ ما تنظر الحسين كيف أرسل ابن عمه إلى الكوفة يبايعهم؟ ويلغنى أن النعمان ضعيف فيهم ، فما عندك من الرأى ؟

ـ أكنت قابلا من معاوية لو كان حيا ؟

ـ نعم .

ـ فاقبل منى ، فليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد فولها إياه.

وأطرق يزيد قليلا فقد كان ساخطا على ابن زياد وكان قد هم بعزله عن البصرة ، ولكنه لم يجد فى أهله من هو أنكى لبنى هاشم منه ، فإن ابن مرجانة يحقد على الهاشميين أشد الحقد ويبغضهم بغضا لا يحد ، فما من أحد لهذه الثورة غيره ، فقلبه قد من صخر، فكتب يزيد :

(من يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد . أما بعد ، فقد

بلغنى أن أهل الكوفة قد اجتمعوا على البيعة للحسين ، وقد كتبت إليك كتابا ، فإنى لا أجد سهما أرمى به عدوى أجرا منك ، فإذا قرأت كتابى فارحل من وقتك وساعتك ، وإياك والتوانى . واجتهد ولا تبق من نسل على بن أبى طالب أحدا ، واطلب مسلم بن عقيل فاقتله وابعث إلى برأسه والسلام) .

وتأهب عبيد الله بن زياد للخروج إلى الكوفة ، فجاءة المنذر ابن الجارود ، وكانت ابنته تحت زياد ، وفى رفقته رجل مغلول اليدين فقال ابن زياد :

ـ من هذا ؟

ـ رسول الحسين إلى أشراف البصرة يدعوهم إلى نصرته . ودفع بالكتاب إلى عبيد الله بن زياد فقرأ :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على . أما بعد ، فإن الله اصطفى محمدا على جميع خلقه . وأكرمه بنبوته ، وحباه برسالته ، ثم قبضه إليه مكرما ، وقد نصح العباد وبلغ رسالات ربه ، وكان أهله وأصفياؤه أحق بمقامه من بعده ؛ وقد تآمر علينا قوم فسلمنا ورضينا كراهة الفتة وطلب العافية . وقد بعثت إليكم بكتابى هذا ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فإن سمعتم قولى واتبعتم أمرى أهدكم إلى سبيل الرشاد . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وغضب ابن زياد ، فأمر بالرسول فضربت عنقه ، فكان أول رسول قتل فى الأسلام ، وما كان هذا أول منكر أتاه ابن زياد ولا آخر حكم جائر للوالى الفظ الغليظ القلب .

خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد فصعد المنبر فقال :

ـ يا أهل البصرة ، إن يزيد قد ولانى الكوفة ، وقد عزمت على المسير إليها ، وقد استخلفت عليكم أخى عثمان بن زياد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإياكم والأراجيف ، فوالله إن بلغنى أن

رجلا منكم خالف أمره لأقتلنه ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا »

ثم خرج يزيد الكوفة ومعه عشيرته ومواليه وأشراف أهل البصرة .

***

جلس الحسين فى الكعبة ، وجاءه عبد الله بن الزبير فساره ، وتطلع الناس إليهما ، فلما أنتهى ابن الزبير من حديثه ، التفت الحسين إلى الناس وقال :

ــ أتدرون ما يقول ابن الزبير ؟

ــ لا ندرى جعلنا الله فداك .

ــ قال : أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس .

ثم صمت الحسين قليلا وقال :

ــ والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلى من أن أقتل داخلا منها بشبر ، وأيم الله لو كنت فى حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم ، والله ليعتدن على كما أعتدت اليهود فى السبت .

وكتب مسلم بن عقيل للحسين أن الناس معه ، فتأهب الحسين للخروج بأهله ومواليه إلى العراق و ذاع نبأ ذلك التأهب فى مكة ، فأشفق المشفقون من ذلك الخروج وجاء رجل إلى الحسين وقال :

ــ إنى جئتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنى ناصح قلتها لك وأديت مما يجب على من الحق فيها ، وإن ظننت أنى غير ناصح كففت عما أريد قوله لك .

ــ قل .

ــ بلغنى أنك تريد العراق وإنى مشفق عليك أن تأتى بلدا فيه عمال يزيد وامراؤه ومعهم بيوت المال ، وإنما الناس عبيد الدرهم

والدينار ، فلا آمن عليك من أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ، وذلك عند البذل وطمع الدنيا .

ـ جزاك الله خيرا من ناصح ، لقد مشيت يابن عم بنصح وتكلمت بعقل ولم تنطق عن الهوى ، ولكن مهما يكن من أمر أخذت برأيك أم تركت مع أنك عندى أحمد مشير وأعز ناصح .

ـ يا بن عم ، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبين لى ما أنت صانع .

ـ إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى .

فقال ابن العباس فى التياع :

ـ فإنى أعيذك بالله من ذلك ، أخبرنى رحمك الله أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ، فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .

ـ وإنى أستخير الناس وانظر ما يكون .

وعلم ابن الزبير بعزم الحسين على الخروج فأحس غبطة فقد كان على يقين من أن الناس فى الحجاز لا يعدلون بالحسين أحدا ، فإذا خرج الحسين خلى له الحجاز فدعا الناس لبيعته ، ورأى أن يدخل على الحسين يزين له الخروج فأتاه وقال له :

ـ ما أدرى ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم . خبرنى ما تريد أن تصنع ؟

ـ والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة ولقد كتب إلى شيعتى بها وأشراف أهلها وأستخير الله .

ـ أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت بها .

ثم خشى أن يتهمه فقال :

ـ أما أنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا ما خولف عليك إن شاء الله .

وتم كل شىء ولم يبق إلا الرحيل ، فأتى الحسين عبد الله بن عباس فقال فى يأس :

ـ يا بن عم أنى أتصبر ولا أصبر ، أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والأستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم. أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية .

ـ يا بن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير .

ـ فإن كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

وساد الصمت بينهما ثم قال ابن عباس :

ـ لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها ، وهو يوم لاينظر إليه أحد معك ، والله الذى لا إله إلا هو لو أعلم أنك لو أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى لفعلت ذلك .

ثم خرج ابن عباس من عنده فمر بعبد الله بن الزبير فقال له:

ـ قرت عينك يا ابن الزبير .

وسار ركب الحسين ليخرج من مكة فاعترضه رسل عمرو بن سعيد وقالوا للحسين :

ــ انصرف ، أين تذهب ؟

فأبى عليهم ومضى ، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط ومضى الحسين على وجهه فنادوه :

ــ يا حسين ، ألا تتقى الله ، تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة ؟

ــ (لى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون) .

وفى الطريق لقيه الفرزدق ، فنزل وسلم على الحسين وقال له :

ــ أعطاك الله سؤالك ، وبلغك مأمولك ، فى جميع ما تحب .

ــ من أين أقبلت يا أبا فراس ؟

ــ من الكوفة .

ــ بين لى خبر الناس .

ــ أجل ، على الخبير سقطت ، يابن رسول الله ﷺ ، قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء ، وربنا كل يوم هو فى شأن .

ــ صدقت ، الأمر لله يفعل ما يشاء ، والله سبحانه كل يوم هو فى شأن .

وسار الحسين حتى انتهى إلى ماء قريب من الحاجز فإذا هو بعبد الله بن مطيع نازل على الماء ، فتلاقى هو وإياه فتساءلا واعتنقا وقال له :

ــ ما جاء بك يا بن رسول الله ﷺ ؟

ــ أقصد الكوفة .

ــ ألم أتقدم إليك بالقول ؟! ألم أنهك عن المسير إلى هذا

الوجه . أذكر الله تعالى فى حرمة الإسلام أن تنتهك ، أنشدك الله تعالى فى حرمة قريش وذمة العرب . والله لئن طلبت ما فى يد بنى أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدا أبدا ، والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب ، فالله الله لا تفعل ولا تأت الكوفة ، ولا تعرض نفسك لبنى أمية .

ولم يلتفت الحسين إلى كلام ابن مطيع فقد عزم على أمر لن يثنيه عنه شىء ، فانطلق قدما .

وكتب عبد الله بن جعفر إلى الحسين مع ابنيه عون ومحمد : (أما بعد ، فإنى أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر فى كتابى ، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت اليوم طفىء نور الأرض ، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنى فى أثر الكتاب والسلام) .

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد والى يزيد على مكة فكلمه وقال له :

ـ اكتب إلى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان ، وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق له فى كتابك وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك .

فقال عمرو بن سعيد :

ـ اكتب ما شئت وائتنى به حتى أختمه .

فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له :

ـ أختمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه ويعلم أنه الجد منك .

وخرج عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فى أثر الحسين ، ولما بلغاه دفعا إليه بكتاب عمرو بن سعيد فنشره وقرأ :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن سعيد إلى الحسين ابن على ، أما بعد فإنى أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، بلغنى أنك توجهت إلى العراق ؛ وإنى أعيذك بالله من الشقاق ، فإنى أخاف عليك فيه الهلاك ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فاقبل معهما ، فإن لك عندى الأمان والصلة والبر وحسن الجوار لك والله على بذلك شهيد وكفيل ومراع ووكيل والسلام عليك) .

فالتفت الحسين إليهما وقال فى حزم :

ـ إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ ، وأمرت فيها بأمر أنا ماض له ، على كان أو لى.

ـ فما تلك الرؤيا ؟

ـ ما حدثت أحدا بها ، وما أنا محدث بها حتى ألقى ربى .

وسار الحسين حتى دخل المدينة ، فأتى قبر رسول الله يزوره قبل خروجه ، فأحس غصة فى حلقه ، وجرى دمعه غزيرا حتى بل لحيته ، ثم خرج بعد أن ودع جده العظيم ودخل إلى أخيه محمد بن الحنفية وقال له :

ـ يا أخى ، إنى راحل إلى العراق .

ـ ناشدتك الله يا أخى أن لا تسير إلى قوم قتلوا أباك ، وغدروا بأخيك ، فاقم عند حرم جدك وإلا فارجع إلى حرم الله فإن لك فيه أعوانا كثيرة .

ـ لا بد من المسير إلى العراق .

ـ إنه ليفجعنى ذلك .

ثم بكى وقال :

ـ والله يا أخى لا أقدر أقبض قائم سيفى ، ولا كعب رمحى ، ثم لا فرحت بعدك أبدا .

وخرج الحسين ومحمد بن الحنفية يرقبه بعيون تترقرق فيها

الدموع ثم غمغم :

ــ أستودعك الله من شهيد مظلوم .

وانطلق الحسين وهو على يقين من أنه سيقوض دعائم الظلم ظافرا أو مقتولا .

ــ ١٨ ــ

كان أهل الكوفة يرقبون قدوم الحسين عليه السلام ، وصلى الناس الجمعة وانصرفوا من الصلاة ، فرأوا ركبا قادما يتوسطه رجل على بغلة شهباء ، عليه ثياب بيض ، وعمامة سواد ، متلثما وبيده قضيب من خيزران ، فهرعوا إليه فسلم عليهم بقضيبه فقالوا له :

ــ قدمت خير مقدم يا بن بنت رسول الله .

وصار لا يمر بملأ من الناس إلا ويسلم عليهم وهم يردون التحية مستبشرين فرحين ، وانطلق الناس خلفه حتى أذا ما اقترب من قصر الإماره ، التفت مسلم بن عمر الباهلى إليهم وقال لهم :

ــ تأخروا عن وجه الأمير فليس هو ظنكم وطلبتكم .

وسمع النعمان ضوضاء الناس فأشرف من أعلى القصر ، وأسفر الراكب عن وجهه فامتعض الناس ، ولاح على الوجوه خيبة الأمل ، فقد كان الرجل عبيد الله بن زياد ولم يكن الحسين المنتظر ، وتطلع عبيد الله إلى النعمان وقال :

ــ يا نعمان ، حصنت قصرك وتركت مصرك .

وفتح نعمان القصر فدخل ابن زياد وأهله ، ثم قال ابن زياد :

ــ يا نعمان ، ناد فى الناس للصلاة جامعة .

فنادى فاجتمع خلق كثير فصعد المنبر وقال :

ـ أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فإنى أعرفه بنفسى . أنا عبيد الله وقد ولانى مصركم هذا يزيد ، وأمرنى بالإنصاف للمظلوم وإعطاء المحروم ، والإحسان إلى مسيئكم ، وأنا متتبع فيكم أمره .

ثم نزل عن المنبر وأمر أن ينادى فى قبائل العرب أن آثبتوا على بيعة يزيد من قبل أن يبعث إليكم من الشام رجالا يقتلون رجالكم ويسبون نساءكم ، فجعل أهل الكوفة ينظر بعضهم بعضا ويقولون :

ـ ما لنا والدخول بين السلاطين .

وأصبح مسلم بن عقيل موعوكا فلم يخرج للصلاة ، فلما كان وقت الظهر خرج إلى المسجد فأذن وأقام فلم يأته أحدا ، فصلى وحده ، فلما فرغ من صلاته إذا هو بغلام فقال له :

ـ يا غلام ، ما فعل أهل هذا المصر ؟

ـ إنهم نقضوا بيعة الحسين وبايعوا يزيد .

فلما سمع كلام الغلام صفق يدا على يد ، وراح يخترق الشوارع حتى بلغ محلة بنى خزيمة ، فوقف هناك بإزاء بيت شاهق ، فخرجت من ذلك البيت جارية ، فقال لها :

ـ لمن هذا الدار ؟

ـ لهانىء بن عروة .

ـ أدخلى عليه وقولى له رجل بالباب ، فإن سألك عن اسمى قولى له أنه مسلم بن عقيل .

فغابت الجارية قليلا ثم خرجت تقول له :

ـ أدخل يا سيدى .

دخل مسلم فألفى هانئا عليلا ، ونهض هانىء ليعتنقه فلم يقدر ، وجلسا يتحدثان حتى أتى حديثهما إلى عبيد الله بن زياد ، فأظهر مسلم كرها لوفوده فقال هانىء :

– سيبلغه مرضى ، وربما يأتى يعودنى ، فإذا جاء فخذ هذا السيف وادخل المخدع ، فإذا جلس فدونك فاقتله ، واحذر أن يفوتك، فإن فاتك قتلك وقتلنى ، والعلامة بينى و بينك إذا قلعت عمامتى عن رأسى وأضعها على الأرض ، فإذا رأيت ذلك فاخرج واقتله .

– أفعل .

وأرسل هانىء إلى ابن زياد يستجفيه ، فأرسل إليه معتذرا وقال:

– ما علمت بعلتك ، وإنى رائح إليك العشية .

فلما صلى ابن زياد صلاة العشاء أقبل يعود هانئا ومعه حاجبه، فقيل لهانىء :

– ابن زياد بالباب يريد الدخول عليك فقال هانىء لجاريته :

– ادفعى السيف لمسلم .

جاء زياد وجلس إلى جانبه وحاجبه قائم على رأسه ، فجعل يحادثه ويسأله عن حاله وهانىء يشكو الذى يجده ، وخلع عمامته ووضعها على الأرض ثم وضعها على رأسه ولم يزل يفعل ذلك ومسلم لم يخرج وقام ابن زياد ، فخرج مسلم فقال له هانىء :

– من الذى منعك من قتله ؟

– منعنى خبر سمعته عن رسول الله قال : الإيمان ضد الفتك، لا يفتك مؤمن .

– لوقتلته لقتلت كافرا .

وبلغ ابن زياد قصر الأمارة ، فدعا مولى له يقال له معقل فأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له :

– خذ هذه الدراهم واسأل عن مسلم بن عقيل وأعطها له ، وقل له استعن بها على عدوك ، وأظهر له الإخلاص وأتنى بخيره .

فأخذ معقل الدراهم وجعل يدور فى الكوفة حتى أرشدوه إلى رجل

من أنصار الحسين فأتاه وهو يصلى فانتظره حتى إذا ما فرغ من صلاته قام إليه وأعتنقه وأظهر له الأخلاص وقال له :

ـ يا أبا عبد الله ، أعلم أنى رجل شامى وقد أنعم الله على بحب أهل البيت ومعى ثلاثة آلاف درهم وقد أحببت أن ألقى الرجل الذى يبايع الناس لابن بنت رسول الله ، وقد أتيتك لتقبل منى هذه الدراهم وتدخلنى على صاحبك فإنى ثقة من ثقاته وعندى كتمان أمره .

ـ يا أخا العرب ، اعزب عن هذا الكلام ، ما لنا ولأهل البيت وما أصاب الذى أرشدك إلى .

فقال معقل :

ـ إذا كنت لم تطمئن إلى فخذ المواثيق والعهود على .

وراح يحلف بأغلظ الأيمان أنه من أنصار الحسين ، فاطمأن الرجل إليه وأدخله على مسلم ، وثق مسلم بمعقل وأخذ عليه البيعة وأخذ المال منه ليشترى به سلاحا . وجعل معقل يتردد على مسلم بن عقيل يأخذ أسراره ، فلما استقصى أخباره دخل على ابن زياد يقص عليه نبأ الذين يتأهبون للانقضاض عليه .

ودعا ابن زياد محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمر بن الحجاج وقال لهم :

ـ انطلقوا إلى هانىء وأتونى به .

فانطلقوا فوجدوه جالسا على باب داره فقالوا له :

ـ يا هانىء إن الأمير يدعوك .

فنهض مع القوم حتى دنا من قصر الإمارة فأحس انقباضا كأنما أحس ببعض الذى كان فأقبل على أسماء بن خارجة فقال :

ـ يا أخى إنى خائف من هذا الرجل ، ونفسى تحدثنى ببعض الذى أجده .

ـ والله ما نخاف عليك منه ، وأنت بحمد الله برىء ، فلا

تجعل على نفسك سبيلا .

وساروا حتى دخل على ابن زياد فلما رأى هانىء أعرض عنه ولم يكرمه ، فأنكر هانىء أمره ، فسلم عليه فما رد عليه السلام فقال هانىء :

ـ بماذا ؟ أصلح الله الأمير .

ـ يا هانىء خبيت مسلم بن عقيل وتجمع له الرجال والسلاح وظننت أن ذلك يخفى على .

ـ معاذ الله ، ما فعلت من ذلك شيئا .

ـ الذى جاءنى أصدق منك عندى . يا معقل أخرج إليه وكذبه.

فخرج معقل فقال فى سخرية :

ـ مرحبا بك يا هانىء ، أتعرفنى ؟

ـ نعم ، أعرفك فاجرا كافرا .

فقال ابن زياد :

ـ إذا لا تفارقنى أو تأتنى بمسلم .

ـ والله لو كان تحت قدمى ما رفعتها عنه .

ـ أدنوه منى .

فأدنوه ، فضربه بحربة علي وجهه فشجه على حاجبه وكسر أنفه ، وتناول هانىء سيف شرطى ليسله فدفع عن ذلك ، وقال عبيد الله :

ـ قد أحل الله لى دمك .

ثم أمر بحبسه فى جانب الدار ، وجاء قومه من بنى مذحج مع عمرو بن الحجاج فوقفوا على باب القصر يظنون أنه قد قتل ، فسمع عبيد الله لهم جلبه فقد كانوا يتصايحون :

ـ يا بن زياد تقتل صاحبنا ولم يخلع طاعة ولم يفرق جماعة؟! يا هانىء إن كنت حيا فكلمنا فقد أتاك قومك بنو مذحج

يقتلون عدوك .

فالتفت ابن زياد إلى شريح القاضى وقال له :

ـ أخرج إليهم وأعلمهم أن صاحبهم حى ، وأن الأمير خبأه لأشياء يسأله عنها .

فخرج إليهم وقال لهم :

ـ صاحبكم جالس مع الأمير يسأله عن أشياء وهذه الساعة يخرج إليكم .

فاطمأنت الجموع على هانىء وقال الناس :

ـ الحمد لله على السلامة .

وسمع مسلم بن عقيل خبر حبس هانىء فركب ونادى بشعاره !

ـ يا منصور أمت .

فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة ، وكان معه المختار ابن أبى عبيد ، ومعه راية خضراء ، وعبد الله بن نوفل بن الحارث براية حمراء ، فرتبهم ميمنة وميسرة وسار هو فى القلب إلى عبيد الله .

وأسرع أعوان ابن زياد إليه وقالوا وهم يرتجفون :

ـ جاء مسلم بن عقيل .

فبادر عبيد الله فدخل القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب، فلما أنتهى مسلم إلى باب القصر وقف بجيشه هناك ، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيد الله فى القصر ، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالأنصراف ، وتهددهم وتوعد هم . وانسل بعض الأمراء بأمر ابن زياد واندسوا فى الناس وجعلوا يخذلونهم عن ابن عقيل فجعلت المرأة تجىء إلى ابنها وأخيها تقول له :

ـ ارجع إلى البيت ، الناس يكفونك .

ويقول الرجل لابنه وأخيه :

ـ كأنك غدا بجنود الشام قد أقبلت فماذا تصنع معهم ؟!

فراح الناس ينصرفون عن مسلم بن عقيل ، وأخذ جيشه يتقلص حتى لم يبق إلا خمسمائة نفس ، ثم تقالوا حتى بقى فى ثلاثمائة ، ثم تقالوا حتى بقى معه ثلاثون رجلا . فصلى بهم المغرب وقصد أبواب كنده فخرج منها فى عشرة .

وفى جوف الظلام انصرف العشرة فبقى وحده ليس معه من يدله على الطريق ولا من يؤانسه بنفسه ، ولا من يأويه إلى منزله، فذهب على وجهه واختلط الظلام وهو وحده يتردد فى الطريق لا يدرى أين يذهب .

ـ ١٩ ـ

هام مسلم بن عقيل على وجهه ، وجعل يبحث عن مخبأ يلجأ إليه ، فلم يهتد إلى مكان أمين ، فأعوانه قد تخلوا عن ، وأنصار الحسين بايعوا ليزيد ، وأحس عطشا فاقترب من دار من الدور الممتدة على طول الطريق ، فرأى امرأة قائمة بالباب تنتظر أوبة ابنها الذى خرج مع الناس ، فاقترب منها وقال لها :

ـ اسقنى ماء .

فدخلت المرأة دارها ثم عادت فسقته ، ودخلت لتعيد الإناء ثم أقبلت تنتظر أوبة ابنها فوجدته لا يزال واقفا أمام بابها ، فقالت:

ـ ألم تشرب ؟ !

ـ بلى .

ـ فاذهب إلى أهلك عافاك الله ، فإنه لا يصلح بك الجلوس على بابى ولا أحمله لك .

ـ يا أمة اللة ، ليس لى فى هذا البلد منزل ولا عشيرة ، فهل إلى أجر ومعروف وفعل نكافئك به بعد اليوم ؟

ـ يا عبد الله وما هو ؟

ـ أنا مسلم بن عقيل ، كذبنى هؤلاء القوم وغرونى .

ـ أنت مسلم ؟

ـ نعم !

ـ ادخل .

فأدخلته دارها وخبأته فى مخدع خاص وراحت تعد له العشاء، وأدخلته له فلم يتعش ، وعاد ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج على ذلك المخدع فأنكر لحالها فقال لها :

ـ يا أماه ما أكثر دخولك وخروجك إلى هذا المخدع .

ـ أعرض عن هذا .

ـ أخبرينى .

ـ لا .

ـ أخبرينى والا اقتحمت هذا المخدع .

ـ يا ولدى وآخذ عليك عهد الله أنك لا تفشى هذا الأمر ؟

ـ نعم !

ـ أقسم .

ـ أعاهد الله أن لا أبيح السر .

ـ يا ولدى ، هذا مسلم بن عقيل المغرور قد أخبيته إلى أن يسكت عنه الطلب ، وإياك يا ولدى أن تخون الأمانة .

بات الشاب تلك الليلة يفكر فى أمر مسلم بن عقيل ، وجعلت نفسه توسوس له أن ينكس بعهده ، وأن يفشى السرلابن زياد ، ففى ذلك رضا الأمير وإقبال الدنيا ، واستمرت نفسه تمنيه وتزين له الخيانة حتى إذا ما لاح الخيط الأبيض فى الأفق الشرقى هب من نومه وترك داره وانطلق إلى عبد الرحمن بن محمد الأشعث فأعلمه أن مسلم بن عقيل فى دارهم .

وكأنما كان بين آل الأشعث وآل أبى طالب عداوة قديمة ،

فالأشعث خذل الناس عن الإمام يوم صفين ، وجعدة بنت الأشعث سمت الحسن ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث انطلق إلى دار الإمارة ليرشد أعداء أهل البيت إلى مخبأ مسلم بن عقيل بن أبى طالب .

انطلق عبد الرحمن إلى دار الإمارة فدخل على أبيه وهو عند ابن زياد ، فساره فقال ابن زياد :

ــ ما الذى سار به ؟

ــ أخبرنى بمخبأ مسلم بن عقيل .

فنخس بقضيب فى جنبه وقال :

ــ قم فأتنى به الساعة .

وبعث أبن زياد صاحب شرطته ومعه عبد الرحمن ومحمد ابن الأشعث فى سبعين فارسا ، وسمع مسلم صهيل الخيل وتعقعة اللجم، وزعقات الرجال ، فغمغم :

ــ ما طلب القوم غيرى .

وأطل على القوم فرآهم قد أحاطوا بالدار ، فالتفت إلى المرأة وقال :

ــ هاتى سيفى .

وقام وشد وسطه بمنطقته وتدرع بدرعه وخرج إلى القوم وهو يهز سيفه ، فقالت له المرأة :

ــ يا سيدى .. أراك تأهبت للموت ؟ !

ــ والله أجل ، لا بد من الموت .

وخرج إلى القوم وكر عليهم ، وقاتلهم قتال من يعلم قرب نهايته ، وكان مسلم بطلا من صناديد بنى هاشم فجدل منهم رجلا ففروا مذعورين من الدار ، ولكنهم عادوا إليه بقلوب واجفة فهجم عليهم بقلب يائس ، وجدل منهم رجالا فخرجوا من الدار مذعورين، ثم عادوا إليه يهاجمونه فكر عليهم وقد كشر عن أنيابه

وأطل من سيفه المنون ، فخرجوا من الدار مذعورين ، ورأوا أنه سيفنيهم إذا عادوا إلى مهاجمة ذلك الليث الكاسر ، فرأوا أن يخدعوه ، فصاح عبد الرحمن بن محمد الأشعث :

ـ يا مسلم بن عقيل لك الأمان .

كان مسلم من بيت إذا عاهد أوفى، فما كان يدرى أن النكث أصبح طابع العصر ، وإن رأى وعاين نكث الجماهيرلعهودهم ، ومكابدته من خذلانهم . وكان مسلم قد أعياه التعب ، فأمكن عبد الرحمن من يده ، فجاءوا ببغلة فأركبوه عليها وسلبوا عنه سيفه ، فلم يبق يملك من نفسه شيئا ، وأطرق يفكر فتذكر شيئا ، فبكى وغمغم :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فحسب بعض من حوله أنه يبكى فرقا من الموت فقالوا له فى سخرية :

ـ إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا .

ـ أما والله لست أبكى على نفسى ولكن أبكى على الحسين ، وآل الحسين .إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة .

ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال :

ـ إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لسانى تأمره بالرجوع فافعل .

وانطلق مسلم إلى دار الإمارة وهومثخن بالجراح ، مخضب بالدماء فى وجه وثيابه ، وهو فى غاية العطش ، وإذا قلة من ماء هنالك ، فأراد أن يتناولها ليشرب منها فقال له رجل من الرجال الواقفين بباب ابن زياد :

ـ والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .

ـ ويلك يابن ناهلة ! أنت أولى بالحميم والخلود فى نار الجحيم منى .

ثم جلس فتساند إلى الحائط من التعب والكلال والعطش ، فبعث رجل مولى له إلى داره فجاءه بقلة عليها منديل ومعه قدح ، فجعل يفرغ له فى القدح ويعطيه فيشرب فلا يستطيع أن يسيغه من كثرة الدماء التى تعلو على الماء مرتين أو ثلاثا . فلما شرب سقطت ثناياه مع الماء فقال :

ـ الحمد لله لقد كان بقى لى من الرزق المقسوم شربة ماء .

وأدخل على ابن زياد ، فلما رأى مسلم تجبره قال :

ـ السلام على من أتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

فتبسم ابن زياد ، فقال بعض حجابه :

ـ يا مسلم أما ترى الأمير ضاحكا عليك . لو قلت السلام عليك أيها الأمير !

ـ والله ما علمت أن لى أميرا غير الحسين ، وإنما يسلم عليه بالإمارة من يخاف منه .

ـ إيه يا بن عقيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على قتل بعض .

ـ كلا لست لذلك أتيت ، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال أهل كسرى وقيصر . فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب .

ـ وما أنت وذا يا فاسق ؟ لم لا كنت تعمل بذلك فيهم إذا أنت بالمدينة تشرب الخمر ؟ !

ـ أنا أشرب الخمر ! والله إن الله ليعلم إنك غير صادق ، وإنك قلت بغير علم ، وأنت أحق منى ، فإنى لست كما ذكرت ، وأن أولى بها منى من ولغ فى دماء المسلمين ولغا ، ويقتل النفس التى حرم الله بغير نفس ، ويقتل على الغضب والظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا .

ـ يا فاسق ، إن نفسك تمنيت ما حال الله دونك ودونه . ولم يرك أهله

ـ فمن أهله يا بن زياد ؟

ـ أمير المؤمنين يزيد .

ـ الحمد لله على كل حال ، ورضينا بالله حكما بيننا وبينكم.

ـ إنك تظن أن لكم فى الأمر شيئا ؟

ـ لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين .

ـ قتلنى الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الإسلام من الناس .

ـ أما إنك أحق من أحدث فى الإسلام ما لم يكن فيه ، أما إنك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك

وأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينا وعليا وعقيلا وأخذ مسلم لا يكلمه ، ثم قال ابن زياد :

ـ اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثم أتبعونى جسده ورأسه .

فقال مسلم :

ـ يابن الأشعث ، أما والله لولا أنك أمنتنى لما استسلمت ، قم بسيفك دونى قد أخفرت ذمتك .

فأطرق ابن الأشعث ولم تنفرج شفتاه بكلمة ، فقال ابن زياد :

ـ أين الرجل الذى ضرب ابن عقيل رأسه وعاتقه ؟

فذهبوا يدعونه ، فقال مسلم :

ـ دعنى أوصى إلى بعض قومى .

ـ أوص .

فنظر فى جلساء ابن زياد وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص فقال :

ـ يا عمر ، إن بينى وبينك قرابة ، ولى إليك حاجة وهى سر فقم معى إلى ناحية القصر حتى أقولها لك .

فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد ، فقام فتنحى قريبا من ابن زياد فقال له مسلم :

ـ إن على دينا فى الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عنى واستوهب جثتى من ابن زياد فواريها ، وابعث إلى الحسين ، فإنى كنت قد كتبت إليه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلا

فالتفت عمر إلى ابن زياد قال :

ـ أتدرى ما قال لى ؟

ثم راح يذيع وصية مسلم له فقال له ابن زياد :

ـ إنه لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن ، أما مالك فهو لك ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما أحببت ، وأما حسين فإنه إن لم يردنا لم نرده وإن أرادنا لم نكف عنه .

فقال عمر بن سعد :

ـ أما الحسين فلا بد أن يقدم علينا ونذيقه الموت غصة .

فقال ابن زياد لعمر :

ـ قبحك الله من مستودع سرا ، والله لو أنه باح لى بسره لكتمت عليه وقضيت حاجته ، ولكن من حيث أفشيت سره فلايخرج لحرب الحسين غيرك .

وجاء الرجل الذى طلبه ابن زياد فقال له :

ـ أنت تقتله .

وأصعد مسلم إلى أعلا القصر وهو يكبر ويهلل ، ثم التفت إلى الرجل وقال له :

ـ دعنى أصلى ركعتين ، وأفعل ما بدا لك .

ـ ليس الى ذلك سبيل .

فقال مسلم :

جزى الله عنا قومنا شرماجزى شرار الموالى بل أعق و أظلما
همو منعونا حقنا وتظاهروا علينا وراموا أن نذل ونرغما
أغاروا علينا يسفكون دماءنا ولم يرقبوا فينا زماما ولاذما
فنحن بنو المختار لا خلق مثلنا نبى أبت أركانه أن تهدما

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

ـ اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا .

ـ ٢٠ ـ

انطلق الحسين وأهله ومواليه ، وكان لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتبعوه حتى إذا بلغ الحاجز من بطن ذى الرمة بعث قيس بن مسهر الصيداوى إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملككم على نصرنا ، والطلب بحقنا، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذى الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولى فاكتموا أمركم ، وجدوا فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

وأقبل قيس بكتاب الحسين إلى الكوفة حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير قد بعثه ابن زياد فى أربعة آلاف فارس لما علم بخروج الحسين ، فبعث به إلى عبيد الله بن زياد فلما وصل إليه شاء أن يذله بأن يرغمه على سب من أوفده رسولا، فقال له :

ـ يا فتى ، أصعد إلى أعلا القصر فسب الكذاب ابن الكذاب على بن أبى طالب وابنه الحسين .

فصعد الفتى إلى أعلا القصر ، فاجتمع الناس ينظرون ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ أيها الناس ! هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجز من بطن ذى الرمة ، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا .

ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، وأستغفر لعلى والحسين ، فأمربه ابن زياد فالقى من رأس القصر فتقطع .

وقضى أناس الحج فلم يكن لهم هم إلا اللحاق بالحسين ، وأدركوه وقد مر برجل قادم من العراق ، فهم الحسين أن يكلمه ويسأله ثم ترك ، فجاءوا ذلك الرجل فسألوه عن أخبار الناس فقال :

ـ والله لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانىء ابن عروة ورأيتهما يجران بأرجلهما فى السوق .

فلحقوا الحسين فأخبروه ، فبان الأسى فى وجهه وقال :

ـ إنا لله وإنا اليه راجعون ، فرحمة الله ورضوانه عليهما .

ـ يا أبا عبد الله ، ألا ما رجعت من موضوعك هذا ، فليس لك فى الكوفه ناصر ولامعين .

فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أبى طالب وقالوا :

ـ لا والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا .

فقال الحسين :

ـ لا خير فى الحياة بعد هؤلاء الفتية .

فعلم الملأ أنه عازم على المسير ولن يثنيه عن عزمه شىء ، كان الحسين يعرف هدفه وغايته ، كان على يقين من أن موته سيزلزل أركان دولة الظلم والجور ، فانطلق إلى الموت راضى

النفس بلا تداخله ذرة من شك فى مصيره وفيما هو سائر إليه .

وسار الحسين حتى إذا كان بزرود بلغة أيضا مقتل الذى بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة ، فغمغم :

ــ خذلتنا شيعتنا .

وراح يفكر فى أمر الناس الذين انضموا اليه فى سيره ، إنهم ما اتبعوه إلا وهم يظنون أن العراق له وفى قبضته ، ولكنه قادم على الموت ، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون ، فقام فخطبهم :

ــ أيها الناس ، إنما جمعتكم على أن العراق فى قبضتى ، وقد جاءنى خبر صحيح أن مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة قتلا وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن كان منكم يصبر على ضرب السيوف وطعن الرماح وإلا فلينصرف من موضعه هذا . فليس عليه من ذمامى شىء. فسكتوا جميعا ، ثم تفرقوا عنه إلى سبأ ، يمينا وشمالا حتى بقى فى أصحابه الذين خرجوا معه من مكة ، بقى فى أهله ومواليه وهم نيف وسبعون رجلا ، فنظر إليهم كأنما يسألهم رأيهم فقالوا فى حزم أكيد :

ــ والله ما نرجع حتى نأخذ بثأرنا أو نذوق الموت غصة بعد غصة .

وكان السحر فأمر الحسين فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه ، وجلس يقرأ القرآن والدموع تسيل على خدية ولحيته ، ودخل عليه رجل فقال :

ــ بأبى وأمى يا بن بنت رسول الله ، ما أنزلك هذه البلاد والفلاة التى ليس بها أحد ؟

ــ هذه كتب أهل الكوفة إلى ولا أراهم إلا قاتلى ، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا لله حرمة إلا أنتهكوها ، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة .

ورحل الحسين ومن معه ، فساروا إلى صدر النهار ، فسمع الحسين رجلا يكبر فقال له :

ـ مم كبرت ؟

ـ رأيت النخيلة .

فقال رجلان من أصحابه :

ـ إن هذا المكان لم ير منه أحد نخيلة .

فقال الحسين :

ـ فماذا تريانه رأى ؟

ـ هذه الخيل قد أقبلت .

ـ أما لنا ملجأ نجعله فى ظهرنا ونستقبل القوم من وجه واحد ؟

ـ بلى ، ذوحسم .

فأخذ ذات اليسار إليها فنزل ، وأمر بأبنيته فضربت ، وجاء القوم وهم فى ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى ، وهم مقدمة الجيش الذى بعثهم ابن زياد .

وفى نحو الظهيرة ، وقف جيش الحر أمام الحسين ، فهب أصحاب الحسين وفى أيديهم السيوف ، فاقترب الحر من الحسين فقال :

ـ يا أبا عبد الله إسقنا الماء .

فقال الحسين لأصحابه :

ـ إسقوا القوم وارووا خيلهم .

واقترب من رجل منهم وقال له فى رقة :

ـ يا بن الأخ ، أنخ الجمل .وافتح الراوية واشرب واسق راحلتك .

ودخل وقت الظهر فأمر الحسين رجلا من أصحابه فأذن ، ثم خرج الحسين فى إزار ورداء ونعلين وقال :

ـ أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله ، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود واستأثروا بالفىء ، وأحلو حرام الله وحرموا حلاله وإنا أحق من غير . وقد أتتنى كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتكم إنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فى أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتى من أعناقكم فلعمرى ما هى لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث عل نفسه ، وسيغنى الله عنك ، والسلام ورحمة الله وبركاته .

والتفت إلى الحر وقال له :

ـ تريد أن تصلى بأصحابك ؟

ـ لا ، ولكن صل أنت ونحن نصلى وراءك .

وانتهت الصلاة فقال الحر للحسين :

ـ إنا لا ندرى ما هذه الكتب ، ولا من كتبها .

فأحضر الحسين خرجين مملوءين كتبا فنثرهما بين يديه وقرأ منها طائفة . فقال الحر :

ـ لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك فى شى ء ، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد .

ـ الموت أدنى من ذلك .

ثم قال الحسين لأصحابه :

– اركبوا .

فركبوا وركب النساء ، فلما أراد الانصراف حال القوم بينه وبين الانصراف ، فقال الحسين للحر :

– ثكلتك أمك ، ماذا تريد ؟

– أما والله لو غيرك يقولها لى من العرب وهو على مثل الحال التى أنت عليها لأقتصن منه ، ولما تركت أمه ، ولكن لا سبيل إلى ذكر أمك إلا بأحسن ما نقدر عليه .

وتقاوم القوم وتراجعوا فقال له الحر :

– إنى لم أومر بقتالك ، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد ، فإذا أبيت فخذ طريقا لا يقدمك الكوفة ولا تردك إلى المدينة ، واكتب أنت إلى يزيد ، وأكتب أنا إلى ابن زياد إن شئت ، فلعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك .

فأخذ الحسين يسارا عن طريق العذيب والقادسية ، والحر يسايره وهو يقول له :

– يا حسين ، إنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن .

– أفبالموت تخوفنى ؟ ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال : أين تذهب فإنك مقتول ؟ فقال :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما
وأسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق خوفا أن يعيش ويرغما .

فلما سمع ذلك الحر منه ، تنحى عنه وجعل يسير بأصحابه ناحية عنه ، وأقبل أربعة نفر من الكوفة على رواحلهم يخبون

يقصدون الحسين ، وراح الدليل ينشد :

ياناقتى لا تذعرى من زجرى	وشمرى قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر	حتى تحلى بكثير الفخر
الماجد الحر رحيب الصدر	أثابه الله بخير أجر
ابن أمير المؤمنين الطهر	وابن الشفيع من عذاب الحشر
يا مالك النفع معا والضر	أيد حسينا سيدى بالنصر
على اللعينين سليلى صخر	وابن زياد العهر ابن العهر

وأراد الحر أن يحول بينهم وبين الحسين فقال له الحسين :

ــ ألم تكن قد عاهدتنى أن لا تتعرض لأحد من أصحابى ، فإن كنت على ما بينى وبينك وإلا نازلتك فى ميدان الحرب .

فكف عنهم الحر ، وذهبوا إلى الحسين فاستقبلهم وقال لهم :

ــ أخبرونى عن الناس وراءكم .

ــ أما أشراف الناس فهم الب واحد عليك ، وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوى ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك .

وتلفت رجل منهم وقال :

ــ انظر فما معك ، لا أرى معك أحدا إلا هذه الشرذمة اليسيرة ، وإنى لا أرى هؤلاء القوم الذين يسايرونك أكفاء لمن معك . فكيف وظاهر الكوفة مملوء بالخيل والجيوش يعرضون ليقصدوك . فأنشدك الله ، إن قدرت أن لا تتقدم إليهم شبرا فافعل .

فقال الحسين فى هدوء

ــ جزاك الله خيرا .

ولم يرجع الحسين عما اعتزمه ، فلما كان الليل أمر فتيانه أن يستقوا من الماء كفايتهم ، ثم سرى فتعس فى مسيره حتى خفق برأسه ، واستيقظ وهو يقول :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فأقبل عليه ولده على وقال :

ـ يا أبت ، لم استرجعت لا أراك الله سوءا ؟

ـ يا ولدى خفقت خفقة فرأيت فارسا وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسير بهم .

ـ يا أبت ألسنا على حق ؟

ـ بلى ، نحن والله على الحق .

ـ إذا والله لا نبالى .

ـ ٢١ ـ

دعا ابن زياد عمر بن سعد فقال :

ـ سر بنا إلى الحسين ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك .

ـ إن رأيت رحمك الله أن تعفينى فافعل .

ـ نعم على أن ترد لنا عهدنا .

فأطرق عمر بن سعد قليلا ثم قال :

ـ أمهلنى اليوم حتى أنظر .

وانصرف عمر وهو مبلبل الفكر لا يريد أن يتصدى للحسين، وابن زياد لن يقبل منه أن يتخلى دون أن يوغر ذلك صدر الأمويين عليه ، وانصرف عمر يستشير نصحاءه فجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ، وهو ابن أخته فقال له :

ـ أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها ، لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين .

ـ فإنى أفعل إن شاء الله .

وظل عمر بن سعد فى حيرته فما وجد رجلا واحدا ينصحه

بالخروج إلى الحسين ، إنه كان خارجا لقتال الديلم قبل ورود أنباء مسير الحسين ، فياليته خرج ، إذا لعرف مواقع أقدامه ، أما أن يخرج لابن بنت النبى الكريم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذى رفعهم إلى ما هم فيه ، وجعلهم سادة وحكاما فى ذلك الضلال البعيد .

ومر اليوم وعمر بن سعد فريسة لأفكاره ، ودخل على ابن زياد فانهارت مقاومته جميعا وقال :

ــ أصلحك الله إنك وليتنى هذا العمل وكتبت لى العهد وسمع به الناس ، فإن رأيت أن تنفذ لى فافعل ، وابعث إلى الحسين فى هذا الجيش من أشراف الكوفة من لست بأغنى ولا أجزأ عنك فى الحرب منه .

فسمى له أناسا ، فقال له ابن زياد :

ــ لا تعلمنى بأشراف أهل الكوفة ، ولست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث إن سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا .

فأطرق عمر بن سعد وقال :

ــ فإنى سائر .

وخرج عمر بن سعد يندب الناس إلى الحسين ، وأتاه من نصحوه بعدم الخروج فأعرض عنهم بوجهه ، فتركوه آسفين ، فقد باع عمر بن سعد دينه بدنياه .

***

ثار النقع ، وأقبل راكب على نجيب له ، وعليه السلاح ، متنكب قوسا ، مقبل من الكوفة ، فوقفوا جميعا ينتظرونه ، فلما انتهى إليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه ، ولم يسلم على الحسين وأصحابه ، فدفع إلى الحر كتابا من عبيد الله بن زياد ، فإذا فيه :

(أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى والسلام)

فالتفت الحر إلى الحسين وأصحابه وقال :

ـ هذا كتاب الأميرعبيد الله بن زياد يأمرنى فيه أن أجعجع بكم فى المكان الذى يأتينى فيه كتابه ، وهذا رسوله وقد أمره أن لا يفارقنى حتى أنفذ رأيه وأمره .

فنظر رجل من أصحاب الحسين إلى الرسول وقال له :

ـ ثكلتك أمك ، ماذا جئت فيه ؟ !

ـ وما جئت فيه ؟ أطعت إمامى ووفيت بيعتى .

ـ عصيت ربك ، وأطعت إمامك فى هلاك نفسك ، كسبت العار والنار ، قال الله عز وجل : (وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) فهو إمامك .

وأخذ الحر بن يزيد القوم بالنْزول فى ذلك المكان على غير ماء ولا فى قرية ، فقالوا :

ـ دعنا ننزل فى هذه القرية أو هذه القرية أو هذه الأخرى .

ـ لا والله ما أستطيع ذلك ، وهذا رجل قد بعث إلى عينا .

فاقترب رجل من أصحاب الحسين وقال له :

ـ إن قتال هؤلاءأهون من قتال من يأتينا من بعدهم فلعمرى ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به .

ـ ما كنت لأبدأهم بالقتال .

ـ سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنها حصينة وهى على شاطىء الفرات ، فإن منعونا قاتلناهم فقتالهم أهون علينا من قتال من يجىء بعدهم .

فرفض الحسين ونزل كربلاء كأنما كانت أرضه تناديه .

وسار عمر بن سعد بجيشه حتى نزل قبالة الحسين ، فدعا

رجلا من رجاله وقال له :

ـ ائته فسله ما الذى جاء به ، وماذا يريد ؟

فاستحيا الرجل أن يذهب إلى الحسين ، فقد كان ممن كتب إليه ، فعرض عمرذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلهم أبى وكره . وقام إليه كثير بن عبد الله الشعبى فقال :

ـ أنا ذاهب إليه ، والله لئن شئت لأفتكن به .

ـ ما أريد أن تفتك به ، لكن ائته فسله ما الذى جاء به .

فاقبل إليه ، فلما رآه أحد أصحاب الحسين قال :

ـ أصلحك الله أبا عبد الله ، قد جاء شر أهل الأرض .

فقام صاحب الحسين إليه فقال :

ـ ضع سيفك .

ـ لا والله ولا كرامة ، إنما أنا رسول ، فإن سمعتم منى أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، وإن أبيتم انصرفت عنكم .

ـ فإنى آخذ بقائم سيفك ثم تكلم بحاجتك .

ـ لا والله لا تمسه.

ـ أخبرنى ما جئت به أنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر .

فاستبا وانصرف كثير إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ، فدعا عمر قرة بن قيس الحنظلى فقال له :

ـ ويحك يا قرة ! الق حسينا فسله ما جاء به وماذا يريد ؟

فأتاه قرة بن قيس ، فلما رآه الحسين مقبلا التفت إلى أصحابه وقال :

ـ أتعرفون من هذا ؟

ـ نعم ، هذا رجل من حنظلة وهو ابن أختنا ، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأى ، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد .

فجاء قرة حتى سلم على الحسين ، وأبلغه رسالة عمر بن سعد

فقال الحسين :

ـ كتبت إلى أهل مصركم هذا أن أقدم ، فأما اذ كرهونى فأنا أنصرف عنهم .

والتفت حبيت بن مظاهر إلى قرة وقال :

ـ ويحك يا قرة بن قيس ، إنى ترجع إلى القوم الظالمين ، انصر هذا الرجل الذى بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك

ـ أرجع إلى صاحبى بجواب رسالته ، وأرى رأيى .

وكتب ابن سعد إلى ابن زياد كتابا بما قال الحسين ، وأوفد إليه رسولا ، وصار ابن سعد يخرج كل ليلة ويبسط بساطا ويدعو الحسين ويتحدثان حتى يمضى من الليل شطره .

ودخل رسول عمر بن سعد على ابن زياد ، فلماقرأ الكتاب قال :

ألآن إذ علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

وكتب إلى ابن سعد :

(أما بعد ، فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإن أطاع وإلا فخل بينه وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالنقى الزكى المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان) .

فلما بلغت هذه الرسالة عمر بن سعد قال :

ـ قد حسبت ألا يقبل ابن زياد العافية .

وبعث عمر بن سعد رجالا ليحولوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء ، فقد كان ابن سعد يعلم علم اليقين أن الحسين لن يبايع ليزيد وإن ذاق الموت غصة بعد غصة .

وأصبح الصباح فرأى الحسين أن القوم قد حالوا بينه وبين الماء ، فدعا راحلته فركبها ، وأقبل عل القوم ونادى :

ـ أيها الناس أنصتوا لى ، أنسبونى من أنا ثم راجعوا

أنفسكم هل يحل لكم قتلي وأنا ابن بنت نبيكم ، وابن صفية وأول المؤمنين والمصدق بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله . أليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ، أو ليس جعفر الطيار فى الجنة عمى، أو ما بلغكم قول جدى لى ولأخى الحسن : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ وقال : إنى مخلف فيكم الثقيلين ، كتاب الله وعترتى أهل بيتى .

ويلك يا شبث بن ربعى ، ويا كثير بن شعاب ويا فلان ويا فلان ، ألم تكتبوا إلى أن أقدم علينا لك ما لنا وما علينا ؟

ـ لم نفعل شيا من ذلك .

ـ إذا كرهتمونى دعونى أنصرف إلى ما شئت من الأرض .

فقال قيس بن الأشعث :

ـ أنزل على حكم الأمير ابن زياد فما ترى إلا ماتحب .

ـ والله لا أعطى بيدى إعطاء الذليل ، ولا أفر فرار العبيد (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) .

* * *

جلس ابن زياد وعنده شمر بن ذى الجوشن وكان من أعدى أعداء أهل البيت ، فجعل يوغر صدره على الحسين ويحرضه على البطش به ويقول :

ـ والله لئن رجل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك .

ـ نعم ما رأيت .. الرأى رأيك .

وكتب عبد الله بن زياد إلى عمر بن سعد :

(أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ،، ولا لتطاوله

ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا تقعد له عندى شافعا ، انظر فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم وإستسلموا فابعث بهم إلى سلما، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم ، وليس دهرى فى هذا أن يضر بعد الموت شيئا، ولكن على قول لو قتلته فعلت هذا به ، إنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر . فإنا قد أمرناه والسلام) .

ودفع ابن زياد بالكتاب إلى شمر فقام هو وعبد الله بن أبى المحل وكانت عمته عند على بن أبى طالب فولدت له العباس وعبد الله وجعفر وعثمان ، فقال عبد الله بن أبى المحل :

ـ أصلح الله الأمير ، إن بنى أختنا مع الحسين ، إن رأيت أن تكتب لهم أمانا فعلت .

ـ نعم ونعمة عين .

فأمر كاتبه فكتب لهم أمانا . فلم يستطع عبد الله بن أبى المحل أن يصبر حتى يقدم على الحسين فبعث بالأمان مع مولى له ، فانطلق يغذ السير حتى إذا ما نزل معسكر الحسين دعاهم فقال :

ـ هذا أمان خالكم .

ـ اقرىء خالنا السلام ، وقل له أن لا حاجة لنا فى أمانكم . أمان الله خير من أمان بنى سمية .

وأقبل شمر بن ذى الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد ، فلما قرأ عمر بن سعد قال :

ـ مالك ، ويلك لا قرب الله دارك ، وقبح الله ما قدمت به على ، والله إنى لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه ، فأفسدت علينا أمرنا . كنا رجونا أن يصلح . لا يستسلم الحسين

أبدا . إن نفسا أبية لبين جنبيه.

ـ أخبرني ما أنت صانع ؟ أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه؟ وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر .

ـ لا.. لا كرامة لك .. وأنا أتولى ذلك .

ـ فدونك وكن أنت على الرجال .

وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين فقال :

ـ أين بنو أختنا ؟

فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو على وقالوا له :

ـ ما لك ؟ وما تريد ؟

ـ أنتم يا بني أختى آمنون .

ـ لعنك الله ولعن أمانك ، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له .

ونادى عمر بن سعد :

ـ يا خيل الله أركبى وابشرى .

وجلس الحسن بعد أن صلى العصر أمام بيته محتبيا بسيفه، إذ خفق برأسه على ركبتيه ، وارتفع صهال الخيل وقعقعة السلاح ، فخرجت أخته زينب إليه واقتربت منه وقالت :

ـ يا أخى ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت ؟

فرفع الحسين رأسه وقال :

ـ إنى رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لى : إنك تروح إلينا .

فلطمت زينب وجهها وقالت فى التياع :

ـ يا ويلتنا .

ـ ليس لك الويل يا أختى ، اسكتى رحمك الله .

وهرع العباس بن على إليه وقال :

ـ يا أخى القوم .

فنهض ثم قال :

ـ يا عباس ، اركب ـ بنفسى أنت يا أخى ـ حتى تلقاهم فتقول لهم مالكم ؟ ومابدا لكم ؟ وتسألهم عما جاء بهم .

فأتاهم العباس فى نحو عشرين فارسا ، فيهم زهير ابن القين وحبيب بن مظاهر فقال لهم العباس :

ـ ما بدا لكم وما تريدون ؟

ـ جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم .

ـ فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبى عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم .

ـ ألقه فأعلمه ذلك والقنا بما يقول .

فانصرف العباس راجعا يركض إلى الجسين يخبره بالخبر ووقف أصحابه يخاطبون القوم ، فقال حبيب بن مظاهر لزهير :

ـ كلم القوم إن شئت وإن شئت كلمتهم .

ـ أنت بدأت بهذا فكن أنت تكلمهم .

فقال حبيب :

ـ أما والله لبئس القوم عند الله غدا قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه عليه السلام وعترته وأهل بيته ﷺ ، وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيرا .

فقال له عذرة بن قيس :

ـ إنك لتزكى نفسك ما استطعت .

ـ يا عزرة إن الله قد زكاها وهداها فاتق الله يا عزرة فإنى لك من الناصحين ، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية .

ـ يا زهير ، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت ، إنما كنت عثمانيا .

ــ أفلست تستدل بموقفى هذا أنى منهم ، أما والله ما كتبت إليه كتابا قط ، ولا أرسلت إليه رسولا قط ، ولا وعدته نصرتى قط ، ولكن الطريق جمع بينى وبينه فلما رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ ومكانه منه ، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم فرأيت أن أنصره وأن أكون فى حزبه وأن أجعل نفسى دون نفسه حفظا لم ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام .

وأقبل العباس بن على يركض حتى انتهى إليهم فقال :

ــ يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر فى هذا الأمر ، فإن هذا أمر لم يجر بينكم وبينه فيه منطق ، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله فأما رضينا فأتينا بالأمر الذى تسألونه وتسومونه أو كرهنا فرددناه .

فالتفت عمر بن سعد إلى شمر وقال :

ــ ما ترى يا شمر ؟

ــ ما ترى ؟ أنت الأمير والرأى رأيك .

ــ قد أردت ألا أكون .

ثم أقبل على الناس فقال :

ــ ماذا ترون ؟

ــ سبحان الله ، والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغى لك أن تجيبهم اليها .

ــ ٢٢ ــ

وأقبل الليل فدخل الحسين ليعود عليا ؛ ابنه المريض ، ثم خرج وجمع أصحابه وقال :

ــ أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمده على السراء والضراء ، اللهم أنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا

وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد . فإنى لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله عنى جميعا خيرا ، وإلا وأنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، ألا وأنى قد رأيت لكم فانطلقوا جميعا فى حل ليس عليكم منى ذمام . هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى ، ثم تفرقوا فى سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله ، فإن القوم إنما يطلبونى ، ولو قد أصابونى لهوا عن طلب غيرى .

فقال أخوه العباس :

ـ لِم نفعل ؟ لنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبدا .

فالتفت إلى بنى عقيل وقال :

ـ يا بنى عقيل ، حسبكم من القتل بمسلم . اذهبوا قد أذنت لكم .

ـ فما يقول الناس ؟ يقولون أنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف وما ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل ، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك .

فقام إليه رجل من أنصاره فقال :

ـ أنحن نخلى عنك ولما نعذر إلى الله فى أداء حقك ، أما والله حتى أكسر فى صدرهم رمحى ، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولا أفارقك ، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .

وقال آخر :

ـ والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك ، والله لو علمت أنى أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم

أذر ، يفعل ذلك بى سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامى دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هى قتلة واحدة ثم هى الكرامة التى لا انقضاء لها أبدا .

واعتزل الحسين بأصحابه فى خباء له وعنده مولى أبى ذر الغفارى وهو يعالج سيفه ويصلحه والحسين يقول :

يادهر أف لك من خليل	كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل	والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل	وكل حى سالك السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثا ، فبلغت أذنى على بن الحسين وهو مريض ، فخنقته عبرته ، فرد دمعه ولزم السكون ، فقد علم أن البلاء قد نزل ، أما زينب فقد كانت تمرض عليا فسمعت ما سمع فأحسست كأن سكينا يقطع أحشاءها فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وأنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت :

ــ واثكلاه ! ليت الموت أعدمنى الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أمى ، وعلى أبى وأخى حسن ، يا خليفة الماضى ، وثمال الباقى .

فنظر إليها الحسين هو يغلب ما يعتمل فى صدره وقال :

ــ يا أخية ، لا يذهبن حلمك الشيطان .

ــ بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله استقتلت نفسى فداك .

فرد غصته ، وترقرقت عيناه وقال :

ــ لو ترك القطا لنام .

ــ يا ويلتا ، أفتغصب نفسك اغتصابا ؟ فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى .

ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشيا عليها ، فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء ، وقال لها :

ــ يا أخية ، اتقى الله وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شىء هالك

إلا وجه الله الذى خلق الأرض بقدرته ، ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده ، أبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة .

يا أخية ، إنى أقسم عليك فابرى قسمى ، لا تشقى على جيبا ، ولا تخمشى على وجها ، ولا تدعى على بالويل والثبور إذا أنا هلكت .

ثم جاء بها حتى أجلسها عند المريض ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، وأتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية ، فحفروه فجعلوه كالخندق ثم ألقوا فيه ذلك الحطب والقصب وقالوا :

ـ اذا عدوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلا نؤتى من ورائنا .

وراحوا يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، وأصبح الصباح فعبأ الحسين أصحابه وصلى بهم ، فلما فرغ استدرع بدروع جده رسول الله ، وتعمم بعمامته ،وتقلد بسيف أبيه ذو الفقار ، وخرج إلى أصحابه وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وحبيب بن مظاهر فى ميسرة أصحابه ، وأعطى رايته العباس ابن على أخاه ، وجعلوا البيوت فى ظهورهم ، وتأهب أصحاب الحسين الأبرار للقتال ، وقد عزموا على أن يذودوا عن الحق وأن يهلكوا دونه .

وركب الحسين دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ، ورأى جيش عمر بن سعد اللجب قد تأهب لقتال الحفنة المصطفاه من المؤمنين ، فرفع يديه فقال :

ـ اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد

وتفل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك ، وشكوته إليك رغبة منى إليك عن سواك ، ففرجته وكشفته فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة .

وتأججت النار فى الحطب والقصب الذى وضع ليحمى ظهور الحسين وأصحابه ، فأقبل رجل من جيش عمر بن سعد يركض على فرس كامل الأداة حتى يمر على أبيات القوم ، فاذا هو لا يرى إلا حطبا تلتهب النار فيه فرجع فنادى بأعلى صوته :

ـ يا حسين ، استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة .

فقال الحسين :

ـ من هذا ؟ كأنه شمر بن ذى الجوشن .

ـ نعم أصلحك الله هو هو .

ـ يابن راعية المعزى ، أنت أولى بها صليا .

فقال له رجل من أصحابه :

ـ يا بن رسول الله جعلت فداك ، ألا أرميه بسهم فإنه قد أمكننى ليس يسقط سهم فالفاسق من أعظم الجبارين .

ـ لا ترمه ، فإنى أكره أن أبدأهم .

وجعل يزيد بن حصين يمزح فى هذه الساعة التى أطل فيها المنون ، فقال له بعض أصحاب الحسين :

ـ دعنا منك ؛ والله ما هذه بساعة باطل .

ـ والله لقد علم قومى أنى ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا ، ولكن والله أنى لمستبشر بما نحن لاحقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم فيقتلونا .

وانطلق الحسين إلى القوم وصاح بأعلى صوت :

ـ أيها الناس أعلموا أن الدنيا دار فناء وزوال ، متغيرة بأهلها من حال إلى حال ، معاشر الناس ، عرفتم شرائع الإسلام ، وقرأتم القرآن ، وعلمتم أن محمدا رسول الله الملك الديان ،

ووثبتم على قتل ولده ظلما وعدوانا ، معاشر الناس أما ترون إلى ماء الفرات يموج كأنه بطون الحيتان ، يشربه اليهود والنصارى والكلاب والخنازير ، وآل رسول الله يموتون عطشا .

ــ أقصر عن هذا الكلام ، فلن تذوق الماء ولا أحد من أصحابك ، بل تذوق الموت غصة .

فعاد إلى أهله ، وقال :

ــ إن القوم استحوذ عليهم الشيطان ، فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان هم الخاسرون ، وانشأ يقول

تعديتم يا شر قوم ببغيكم   وخالفتمو فينا النبى محمدا
أما كان خير الخلق أوصاكم بنا   أما كان جدى خير الله أحمدا
أما كانت الزهراء أمى ووالدى   عليا أخا خيرا الأنام مسددا
لعنتم وأخزيتم بما قد جنيتم   ستصلو ن نارا حرها قد توقدا

وقال الحسين لرجل من أنصاره :

ــ امض إلى هؤلاء القوم وذكرهم الله ورسوله عساهم يرجعون عن قتالنا ، واعلم أنهم لا يرجعون ، ولكن لتكون لى عليهم حجة يوم القيامة .

وخرج زهير بن القين على فرس له ذنوب . شاك فى السلاح ، فقال :

ــ يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله ، نذارأن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن اخوة ، وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة ، وكنا أمة وأنتم أمة .

إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذ لان الطاغية عبيد الله بن زياد ، فإنكم لا تدركون منها إلا بسوء عمل سلطانهما

كله ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانىء بن عروة وأشباهه .

فسبوه وقالوا :

ـ والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما .

ـ عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية ، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم .

ـ اسكت ، أسكت الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

قال له زهير :

ـ يا بن البوال على عقبيه ، ما اياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة، والله مأظنك تحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم .

ـ إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة .

ـ أفبالموت تخوفنى ، فوالله للموت معه أحب إلى من الخلد معكم .

ثم أقبل على الناس رافعا صوته فقال :

ـ عباد الله ، لايغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوما أراقوا دم ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم .

فناداه رجل فقال له :

ـ إن أبا عبد الله يقول لك أقبل ، فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء القوم وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ .

ـ ٢٣ ـ

خرج عبد الله بن عميرمن بنى سليم من داره بالكوفة، فرأى جيوشا تتأهب ، وقوما بالنخيلة يعرضون فاقترب وسأل :

ـ ما هذه الجيوش ، وإلى أين وجهتها ؟

ـ يسرحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

فأطرق قليلا يفكر فى هذا الأمر ، فغمغم :

ـ والله لو قد كنت على جهاد أهل الشرك حريصا وإنى لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثوابا عند الله من ثوابه إياى فى جهاد المشركين .

وعاد إلى داره يتزود ويتأهب للخروج لنصرة الحسين ، وسألته زوجته أم وهب عن وجهته فأخبرها فقالت :

ـ أصبت ، أصاب الله بك أرشد امورك ،افعل واخرجنى معك.

وفى هجعة الليل انسل من الكوفة وأخذ فى السير حتى نزل كربلاء ، فانضم عبد الله بن عميرإلى أصحاب الحسين ، ودخلت أم وهب على النساء .

وزحف عمر بن سعد إلى الحسين ، فالتفت الحر بن يزيد إليه. وكان أول من بعث ابن زياد لمقابلة الحسين ، وقال :

ـ أصلحك الله ، مقاتل أنت هذا الرجل ؟

ـ أى والله قتالا أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى .

ـ أفما لكم فى احدة من الخصال التى عرض عليكم رضى ؟

ـ أما والله لو كان الأمرإلى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

ووقف الحر بن يزيد قليلا يفكرفى أمره ، إنه يعلم أن الحسين مع الحق ، وأن الدنيا مع ابن زياد ، فأخذ يدنو من الحسين قليلا

قليلا ، فقال له رجل من قومه :

ـ ما تريد يا بن يزيد ، أتريد أن تحمل ؟

فسكت وظل يتقدم فقال الرجل :

ـ والله إن أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك فى موقف قط مثل شىء أراه الآن ، ولو قيل لى من أشجع أهل الكوفة رجلا ما عدوتك ، فما هذا الذى أرى منك ؟

ـ إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار ، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ، ولوقطعت وحرقت .

ثم ضرب فرسه فلحق بحسين عليه السلام ، فلما اقترب منه قال :

ـ جعلنى الله فداك يا بن رسول الله ، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع ، وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك في هذا المكان ، والله الذى لا أله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة ، فقلت فى نفسى لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم ، ولا يرون أنى خرجت من طاعتهم ، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التى يعرض عليهم ، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك ، وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ، ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ، افترى ذلك لى توبة ؟

ـ نعم يتوب الله عليك ويغفرلك . انزل .

ـ أنا لك فارسا خير منى راجلا ، أقاتلهم على فرسى ساعة وإلى النزول ما يصير آخر أمرى .

ـ فاصنع يرحمك الله ما بدا لك .

وتقدم الحر الصفوف ثم قال :

ـ أيها القوم ، ألا تقبلون من حسين خصلة من الخصال التى عرض عليكم ، فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟ !

ـ هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه .

ـ يا عمر.

وراح الحر يكلم عمر بن سعد فقال عمر:

ـ قد حرصت لووجدت إلى ذلك سبيلا فعلت .

ـ يا أهل الكوفة لأمكم الهبل والعبر إذ دعوتموه حتى اذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه ، وأحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع ضرا ، وخلأتموه ونساءه وأصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجارى الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هم قد صرعهم العطش ، بئسما خلفتم محمدا على ذريته ، لا أسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذه فى ساعتكم هذه .

ووضع سعد سهمه فى كبد قوسه ثم رمى فقال :

ـ اشهدوا إنى أول من رمى .

وحملت على الحر رجالة للقوم ترميه بالنبل ، فأقبل حتى وقف أمام الحسين ، وسكنت الألسن لتتكلم السيوف وليحاول الباطل أن يزهق الحق ، ولكن الباطل كان زهوقا .

وخرج يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله بن زياد فقالا:

ـ من يبارز ؟ ليخرج إلينا بعضكم .

فوثب حبيب بن مظاهر ، وبرير بن حضير فقال لهما الحسين :

ـ اجلسا .

فقام عبد الله بن عمير فقال :

ـ أبا عبد الله ، رحمك الله ائذن لى فلأخرج اليهما .

فنظر الحسن اليه فرأى رجلا آدم طويلا ، شديد الساعدين ، بعيد ما بين المنكبين ، فقال :

ـ إنى لأحسبه للأقران قتالا ، اخرج إن شئت .

فخرج عبد الله بن عمير ، فقالا له :

ـ من أنت ؟ .

فانتسب لهما فقالا :

ـ لا نعرفك ! ليخرج الينا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن حضير ،

ـ يا بن الزانية ، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ، ويخرج اليك أحد من الناس إلا وهو خير منك ،

ثم شد عليه سيفه ، فلما رأت أم وهب مبارزة زوجها لرجلين أخذت عمودا ثم أقبلت نحوه تقول له :

ـ فداك أبى وأمى ، قاتل دون الطيبين ذرية محمد .

فاقبل عليها يردها نحو النساء فأخذت تجاذبه ثوبه، ثم قالت:

ـ إنى لن أدعك دون أن أموت معك .

فناداه حسين فقال :

ـ جزيتم من أهل بيت خيرا ، ارجعى رحمك الله إلى النساء فاجلسى معهن ، فإنه ليس على النساء قتال .

واستمرعبد الله يبارزالرجلين حتى أرداهما فاقبل يرتجز:

إنى امرؤ ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب

إنى زعيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدما والضرب

ضرب غلام مؤمن بالرب

وخرج رجل من صفوف ابن سعد فقال :

ـ يا برير بن حضير ، كيف ترى الله صنع بك ؟

ـ صنع الله والله بى خيرا وصنع الله بك شرا .

ـ كذبت وقبل اليوم ما كنت كذابا ، هل تنكر وأنا اماشيك فى بنى لوذان وأنت تقول ان عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفا وأن معاوية بن أبى سفيان ضال مضل ، وإن إمام الهدى والحق على بن أبى طالب ؟

ـ أشهد أن هذا رأيى وقولى .

ـ فإنى أشهد أنك من الضالين .

ـ هل لك فلا بأهلك ولندع الله أن يلعن الكاذب ، وأن يقبل المبطل ثم أخرج فلأبارزك .

فخرجا فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب وأن يقتل الحق المبطل .

وبرز كل واحد منهما لصاحبه فاختلفا ضربتين فضرب الرجل بربر بن حضير ضربة خفيفة لم تضره شيئا وضربه بربر بن حضير ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ فخر كأنما هوى من حالق ، وأن سيف ابن الحضير لثابت فى رأسه ، فراح ينضنضه من رأسه ، وحمل عليه رجل آخر فاعتنق بربرا فاعتركا ساعة ، ثم إن بربرا قعد علي صدره فصاح الرجل :

ـ أين أهل المصاع والدفاع .

فذهب رجل فحمل عليه بالرمح حتى وضعه فى ظهره ، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله .

واستمرت المبارزات فما من رجل خرج لأصحاب الحسين إلا قتل ، فصاح رجل من جيش سعد :

ـ يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون ؟ فرسان المصر ، قوما مستميتين ، لا يبرزن لهم منكم أحد فإنهم قليل ، وقل ما يبقون والله لولم نرموهم بالحجارة لقتلتموهم .

وحمل عمر بن الحجاج فى ميمنة عمر بن سعد من نحو

الفرات ، فاضربوا ساعة ثم انصرف ابن الحجاج وأصحابه وارتفعت الغبرة فإذا مسلم بن عوسجة صريع ، فمشى اليه الحسين فإذا به رمق ، فقال :

ـ رحمك ربك يا مسلم ، منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

ودنا منه حبيب بن مظاهر فقال :

ـ عز على مصرعك يا مسلم ، أبشر بالجنة .

فقال مسلم فى صوت ضعيف :

ـ بشرك الله بخير .

ـ لولا أنى أعلم أنى فى أثرك ، لاحق بك من ساعتى هذه ، لأحببت أن توصينى بكل ما أهمك حتى أحفظك فى كل ذلك بما أنت أهل له فى القرابة والدين .

ـ بل أنا أوصيك بهذا رحمك لله ـ وأهوى بيده إلى الحسين ـ أن تموت دونه .

ـ أفعل ورب الكعبة .

وحمل شمر بن ذى الجوشن فى الميسرة على أهل الميسرة ، فراح عبد الله بن عمير يصول ويجول ، ويجدل الرجال ، وتكاثروا عليه فقتلوه ، وقاتلهم أصحاب الحسين قتالا شديدا ، وأخذت خيلهم تحمل وإنما هم اثنان وثلاثون فارسا ، وأخذت لا تحمل علي جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفته ، فلما رأى قائد فرسانهم ما تلقى خيله من هذه العدة اليسيرة بعث إلى عمر بن سعد أن ابعث إليهم الرجال والرماة .

وأقبل المرامية حتى إذا دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل ، وشب قتال هائل ، وأخذ رجال ابن سعد لا يقدرون على أن يأتوا الحسين وأصحابه إلا من وجه واحد لاجتماع أبنيتهم وتقارب بعضها من بعض ، فلما رأى ذلك عمر بن سعد أرسل رجالا

يقوضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم ، فأخذ أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيشدون علي الرجل وهو يقوض وينتهب فيقتلونه ويرمونه من قريب ويعقرونه ، فأمر عمربن سعد عند ذلك فقال :

ـ أحرقوها بالنار .

فأخذوا يحرقون ، فقال الحسين :

ـ دعوهم فليحرقوها فإنهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها .

وحمل شمر بن ذى الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمحه ونادى :

ـ على بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله .

فصاح النساء وخرجن من الفسطاط ، وصاح به الحسين :

ـ ويلك يا شمر ، تريد أن تحرق خيمة رسول الله ؟ !

ـ نعم .

ـ حرقك الله بالنار .

واقترب رجل من رجال ابن سعد من شمروقال له :

ـ سبحان الله ، إن هذا لا يصلح لك ، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء والله إن قتلك الرجال لما ترضى به أميرك .

ـ من أنت ؟

وخشى الرجل أن لو عرفه أن يضره عند السلطان ، فقال له:

ـ لا أخبرك من أنا .

وحمل عليه زهير بن القين فى رجال من أصحابه فشد على شمر بن ذى الجوشن وأصحابه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها .

وخرجت أم وهب امرأة عبد الله بن عمير تمشى إلى زوجها

حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول :

ـ هنيئا لك الجنة .

فقال شمر بن ذى الجوشن لغلام :

ـ اضرب رأسها بالعمود .

فضرب رأسها ، فسقطت على صدر زوجها وهمس فى أذنها هاتف كأنما كان ترجيع صوتها :

ـ هنيئا لك الجنة .

ـ ٢٤ ـ

كان أصحاب الحسين يشدون على الأعداء شد الليوث ، وكانوا يجدلون منهم خلقا كثيرا ، ولكن إذا قتل منهم الرجل والرجلان تبين فيهم ، وأولئك كثير لا يتبين فيهم ما يقتل ، فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الصائدى قال للحسين :

ـ يا أبا عبد الله ، نفسى لك الفداء ، إنى أرى هؤلاء قد اقتربوا منك ، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله ، وأحب أن ألقى ربى وقد صليت هذه الصلاة التى قد دنا وقتها . فرفع الحسين رأسه وقال :

ـ ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين . نعم هذا أول وقتها .

وأذن مؤذن الحسين ، فلما فرغ من الأذان نادى الحسين :

ـ يا عمربن سعد ، أنسيت شرائع الإسلام ، ألا تكف عن الحرب حتى نصلى ؟

فلم يجبه عمر ، فناداه الحصين بن نمير :

ـ يا حسين صل ، فإن صلاتك لا تقبل .

فقال له حبيب بن مظاهر :

- لا تقبل ! زعمت الصلاة من آل رسول الله ﷺ لا تقبل . وتقبل منك يا حمار .

فغضب الحصين من كلامه وبرز إليه وهو يقول :

- يا حبيب ، ابرز إلى ميدان الحرب ، ومكافحة الطعن والضرب .

فالتفت حبيب إلى الحسين وقال :

- إنى أحب أن تتم صلاتى فى الجنة ، واقرأ جدك وأباك وأخاك منى السلام ، ثم برز وهو يقول :

أنا حبيب بن مظاهر وفارس الهيجاء ليث قسور

أنتم أعد عدة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر

ونحن أعلى حجة وأظهر حقا وأتقى منكم وأعذر

وحمل على الحصين وضايقه فى مجاله ، وضربه على أم رأسه، وقطع خيشوم جواده ، وأرداه إلى الأرض ، وهم أن يأخذ رأسه فحمل عليه أصحابه وتكاثروا عليه فقتلوه .

وهد مقتل حبيب بن مظاهر حسينا وقال :

- أحتسب نفسى وحماة أصحابى .

وجعل الحسين يشهد مصارع الشهداء فبان الانكسار فى وجهه، فقام إليه زهير بن القين قال :

- بأبى أنت وأمى يا بن رسول الله ، ما هذا الانكسار الذى أراه على وجهك ؟ ألست تعلم أنا على الحق ؟

- بلى وإله الخلق إنى لأعلم علما يقينا إنى وإياكم على الحق والهدى .

- إذا لا تبالى ونحن نصير إلى الجنة ونعيمها .

ثم تقدم أمام الحسين فقال :

- أتأذن لى بالبراز ؟

- أبرز .

فبرز زهير وهو يقول :

أنا زهير وأنا ابن القين وفي يميني مرهف الحدين
أذب بالسيف عن الحسين الطاهر ابن الطاهر الجدين

ثم حمل على القوم ولم يزل يقاتل حتى قتل خلقا كثيرا . ثم رجع وقال :

ـ إني خشيت أن يفوتني الصلاة ، فصل بنا .

فقام الحسين وصلى بأصحابه صلاة الخوف فلما انتهى من صلاته قال :

ـ هذه الجنة قد فتحت أبوابها ، واتصلت أنهارها ، وأينعت ثمارها ، وزينت قصورها ، وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا معه ، وأبي وأمي يتوقعون قدومكم عليهم ، يتباشرون بكم، هم مشتاقون إليكم ، فحاموا عن دينكم ، وذبوا عن حرم رسول الله وعن إمامكم ، وابن بنت نبيكم ، فقد امتحنكم الله بنا ، فدافعوا بارك الله فيكم عنا .

فضجوا بالبكاء والنحيب ، وقالوا :

ـ نفوسنا دون أنفسكم ، ودماؤنا دون دمائكم ، وأرواحنا لكم الفداء ، والله لا يصل إليكم أحد بمكروه وفينا الحياة ، وقد وهبنا للسيوف نفوسنا ، وللطير أبداننا ، فلعله نقيكم زحف الصفوف ، ونضرب دونكم الحتوف ، فقد فاز من كسب اليوم خيرا .

ثم برز زهير بن القين وهو يرتجز :

أقدم حسينا هاديا مهديا اليوم نلقى جدك النبيا
وحسنا والمرتضى عليا وذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا

وراح يمشي مشي الوعول ، ويضرب ضرب واثق غير مرتاب ، ويقبل على الموت إقبال صنديد لا يقدر على الحياة ، فما بينه وبين الجنة إلا لحظات . وحمل عليه رجلان فطعناه ، فسقط

يخبط فى دمه ، ويجود بروحه الطاهرة لترجع إلى ربها راضية مرضية .

ورأى أصحاب الحسين أنهم قد كسروا ، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم فجعلوا يتنافسون فى أن يقتلوا بين يديه ، فجاءه بطلان فقالا :

ــ يا أبا عبد الله ، عليك السلام ، حازنا العدو إليك ، فأحببنا أن نقتل بين يديك ، نمنعك وندفع عنك .

ــ مرحبا بكما ، ادنوا منى .

فراحا يقاتلان ليقتلا ، وجاء فتيان ودنوا منه وهما يبكيان فقال :

ــ أى ابنى أخى ما يبكيكما ، فوالله إنى لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرى عين .

ــ جعلنا الله فداك ، لا والله ما على أنفسنا نبكى ، ولكنا نبكى عليك ، نراك قد أحيط بك ولا نقدر على أن نمنعك .

جزاكما الله يا بنى أخى بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياى بأنفسكما أحسن جزاء المتقين .

وجاء رجل فقام بن يدى حسين فأخذ ينادى :

ــ يا قوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، من يضلل الله فماله من هاد ، يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى .

ــ رحمك الله ، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين ؟

ــ صدقت ، جعلت فداك ، أنت أفقه منى وأحق بذلك أفلا

نروح إلى الآخرة ، ونلحق بإخواننا .

ـ رح إلى خيرمن الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى .

ـ السلام عليك أبا عبد الله ، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرف بيننا وبينك فى جنته .

ـ آمين آمين .

وتقدم ليقاتل ويقتل ويلحق بالشهداء والصديقين .

والتفت رجل إلى مولاه وقال :

ـ ما فى نفسك أن تصنع ؟

ـ ما أصنع ! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقتل .

ـ ذلك الظن بك ، فتقدم بين يدى أبى عبد الله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه وحتى أحتسبك أنا ، فإنه لو كان معى الساعة أحد أنا أولى به منى بك لسرنى أن يتقدم بين يدى حتى أحتسبه ، فإن هذا يوم ينبغى لنا أن نطلب فيه بكل ما قدرنا عليه ، فإنه لا عمل بعد اليوم ، وإنما هو الحساب .

ثم التفت إلى الحسين وقال :

ـ يا أبا عبد الله ، أما والله ما أمسى عل ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز على ولا أحب إلى منك ، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشىء أعز على من نفسى ودمى لفعلته . والسلام عليك يا أبا عبد الله ، أشهد الله أنى على هديك وهدى أبيك .

وخرج وقد كشر عن أنيابه فما خرج له من أحد ، فصاح :

ـ ألا رجل لرجل ؟

فأحجموا جميعا فقد كانوا يعرفون أنه أشجع الناس فقال عمر بن سعد :

ـ أرضخوه بالحجارة .

فرمى بالحجارة من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ثم شد على الناس ، فمشت فى أجسادهم رعدة فقد كان كل منهم يخشى أن يذوق الموت بغتة ، أما هو فقد كان يرتمى فى أحضان الموت مستريح الضمير ، هادىء البال ، ثم أنهم تعطفوا من كل جانب ، فقتل .

وقتل أصحاب الحسين بين يديه ، وكان آخر من بقى من أصحابه سويد بن عمرو فراح يذب عنه ، وخرج على الأكبر بن الحسين يشد على الناس وهو يقول :

أنا على بن حسين بن على   نحن ورب البيت أولى بالنبى
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

ومر يشد على الناس بسيفه ، فاعترضه رجل فطعنه فصرع، واحتوله الناس فقطعوه بأسيافهم ، فقال الحسين :

ـ قتل والله قوما قتلوك يا بنى ، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء .

وخرجت زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ كأنها الشمس الطالعة ، وهرعت إليه وهى تقول :

ـ يا أخياه ويا بن أخاه .

وأكبت على أول قتيل من بنى أبى طالب يومئذ ، فجاءها الحسين فأخذ يدها فردها إلى الفسطاط ، وأقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه فقال :

ـ احملوا أخاكم .

فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه ، وبرز عبد الله بن مسلم بن عقيل ووقف بإزاء الحسين وقال :

ـ اتأذن لى بالبراز ؟

ـ يا بنى ، كفاك وأهلك القتل .

ـ يا عم ، بماذا ألقى جدك محمدا وقد تركتك ، والله لا كان ذلك أبدا ، بل أقتل دونك حتى ألقى الله بذلك .

وراح يبارز فكان شبل الأسد ، ورماه رجل بسهم ، فخر صريعا ينادى :

ـ واأبتاه ، وانقطاع ظهراه .

فلما نظر الحسين وقد صرع قال :

ـ اللهم اقتل قاتل آل عقيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وراح أبناء عبد الله بن جعفر يسقطون صرعى بين يدى خالهم ، وزينب أمهم تنظر وقد انفطر كبدها حزنا على أبنائها الأبرار ، الذين فاضت أرواحهم فى سبيل نصرة الحق .

وخرج القاسم بن الحسن بن على ، وكان غلاما كأن وجهه شقة قمر ، فى يده السيف ، عليه قميص وإزار ونعلان ، وكان حزم آل ابى طالب يبدو فى قسمات وجهه الصغير ، رآه رجل قد قلبه من صخر فشد عليه ، فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف ، فوقع الغلام لوجهه فقال :

ـ واعماه !

فهد صوته قلب الحسين ، فجلى كما يجلى الصقر ، ثم شد شدة ليث أغضب ، فضرب الرجل بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق ، فصاح ثم تنحى عنه ، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوه من حسين فاستقبلته بصدورها ، فحركت حوافرها . وجالت الخيل بفرسانها عليه فتواطأته حتى مات وانجلت الغبرة، فإذا بالحسين قائم على رأس الغلام ، يفحص برجليه وحسين يقول:

ـ بعدا لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة جدك .

ونظر إلى الوجه الجميل وقال :

ـ عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، ثم لا ينفعك

صوت والله كثر واتره ، وقد ناصره .

ثم احتمله وقد وضع صدره على صدره ، ورجلاه تخطان فى الأرض ، فجاء به حتى ألقاه مع ابنه على بن الحسين ، وقتلى قد قتلت حوله من أهل بيته .

ونظر الحسين فرأى أهل بيته صرعى ، وأصحابه قتلى ، قطعت رءوسهم وألقيت إليه ، فراح يرقبهم وهو واله حزين ، وأحس الظمأ يضنيه ، فأراد أن يشرب قبل أن يلقى مصرعه ، فركب ودنا من الماء ليشرب فرماه رجل بسهم فوقع فى فمه ، ثم انتزع الحسين السهم ثم بسط كفيه فامتلأتا دما ، ثم قال :

ـ اللهم إنى أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك .

ـ ٢٥ ـ

بقى الحسين وحده ، شاهرا سيفه ، يذب عن حياضه ، وما كان مكسورا قط قد قتل ولده وأهل بيته ، وأصحابه أربط جاشا ، ولا أمضى جنانا منه ولا أجرأ مقداما . وراحت الرجالة تتكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب . وأقبل شمر بن ذى الجوشن فى الرجالة نحو الحسين فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه ، فلن يخلصوا إليه قبل أن يروى أرض كربلاء بدماءهم ، ثم أنهم أحاطوا به إحاطة وأقبل إلى الحسين أحمد بن الحسن بن على ، وكان غلاما صغيرا ، فانضم إلى عمه ، وقد غارت عيناه من العطش ، فأخذته زينب ابنة على لتحبسه ، فقال لها الحسين :

ـ احبسيه .

فأبى الغلام وشهر سيفا ليذود عن عمه ، وليموت بين يديه كما مات كل أهله ، وراحت زينب تصيح :

ـ ليت السماء تطابقت على الأرض .

ودنا عمر بن سعد من حسين فقالت :

ـ يا عمر بن سعد ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر .

فغامت عينا ابن سعد بالدموع ، وصرف بوجهه عنها .

وأهوى رجل إلى الحسين بالسيف ، فصاح فيه أحمد بن الحسن :

ـ يا بن الخبيثة ، أتقتل عمى ؟

فضربه الرجل بالسيف ، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة، فإذا يده معلقة فنادى الغلام .

ـ يا أمتاه .

فأخذه الحسين فضمه إلى صدره وقال :

ـ يا بن أخى ، أصبر على ما نزل بك ، واحتسب فى ذلك الخير ، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين ، برسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب وحمزة وجعفر والحسين بن على رضوان الله عليهم أجمعين .

وأقبل إلى أم كلثوم وقال لها :

ـ يا أختاه . أوصيك بولدى الأصغر خيرا .

ـ يا أخى ! إن هذا الطفل له ثلاثة أيام ما شرب الماء ، فاطلب له شربة من الماء .

فأخذ الطفل بين يديه وتوجه نحو القوم وقال :

ـ يا قوم ، قد قتلتم أخى وأولادى وأنصارى ، وما بقى غير هذا الطفل وهو يتلظى عطشا ، فاسقوه شربة من ماء .

وما أتم عبارته حتى أتاه سهم فذبح الطفل من الأذن إلى الأذن، فجعل الحسين يتلقى الدم بكفيه ويرمى به إلى السماء ويقول :

ـ اللهم إنى أشهدك على هؤلاء القوم ، فإنهم نذروا ألا يتركوا أحدا من ذرية نبيك .

ورجع بالطفل مذبوحا ودمه يجرى على صدره ، فألقاه إلى أم

كلثوم ثم نادى :

ــ يا أم كلثوم ويا زينب ويا سكينة ويا رقية ويا عاتكة ويا صفية ، عليكن منى السلام ، فهذا آخر الاجتماع .

فصاحت أم كلثوم :

ــ يا أخى كأنك استسلمت للموت .

ــ يا أختاه ، فكيف لا يستسلم من لا ناصر له ولا معين ؟

ــ يا أخى ، ردنا إلى حرم جدنا .

ــ يا أختاه .. هيهات هيهات .

فرفعت سكينة صوتها بالبكاء والنحيب ، فضمها الحسين إلى صدره وقبلها ومسح دموعها بكمه وقال :

سيطول بعدى يا سكينة فاعلمى   منك البكاء إذا الحمام دهانى
لا تحزنى قلبى بدمعك حسـرة   ما دام منى الروح فى جثمان

وخرج وهو يسمع عويل النساء ونحيبهم ، ثم توجه نحو القوم وقال :

ــ ويلكم ، علام تقاتلونى ؟ على حق تركته أم على سنة غيرتها أم على شريعة بدلتها ؟

بل نقاتلك بغضا منا لأبيك ، وما فعل بأشياخنا يوم بدر وحنين .

وجعل ينظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا من أنصاره إلا من صافح التراب جنبيه ، فنادى :

ــ يا مسلم بن عقيل ، ويا هانىء بن عروة ، ويا حبيب بن مظاهر ، ويا زهير بن القين ، يا أبطال الصفا ويا فرسان الهيجاء ، مالى أناديكم فلا تجيبون ، وأدعوكم فلا تسمعون . أحالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصروه ؟ هذه نساء الرسول لفقدكم قد علاهن النحول ، فقوموا من نومتكم وادفعوا عن حرم الرسول الطغاة اللئام ، ولكن صرعكم والله ريب المنون وإلا لما كنتم عن نصرتى

تقصرون ، فها نحن عليكم منتجعون .

وأخذ يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقى الرمية ويشد على الخيل وهو يقول :

ــ أعلى قتلى تحاثون ، أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله ، الله أسخط عليكم لقتله منى ، وايم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله أن لو قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

ومكث الحسين طويلا من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه ، وكره أن يتولى قتله وعظيم إثمه ، وأقبل شمر بن ذى الجوشن فى نفر نحو من عشرة من رجالة أهل الكوفة قبل منزل الحسين الذى فيه ثقله وعياله ، فمشى نحوه فحالوا بينه وبين رحله ، فقال الحسين :

ــ ويلكم ، إن لم يكم لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا فى أمر دنياكم أحرارا ذوى أحساب .

امنعوا رحلى وأهلى من طغامكم وجهالكم .

فقال ابن ذى الجوشن :

ــ ذلك لك يا بن فاطمة .

والتفت شمر إلى رجل شاك فى السلاح وقال له :

ــ أقدم عليه .

ــ وما يمنعك أن تقدم عليه أنت ؟

ــ إلى تقول ذا ؟

ــ وأنت لى تقول ذا ؟

فاستبا ، فقال لشمر :

ــ والله لهممت أن أخضخض السنان فى عينيك .

وأحس الحسين عطشا شديدا ، والماء يترقرق فى الفرات ،

فحمل على أعدائه وكشفهم عن المشرعة ، ونزل إلى الفرات ، وكان الفرس عطشان ، فلما أحس ببرودة الماء أرسل ليشرب فكره أن ينغص عليه شربه ، فصبر حتى شرب الفرس ، فمد يده ليشرب ، واذا بصائح يصيح :

ـ يا حسين ، أدرك خيمة النساء فإنها قد هتكت .

فنفض الماء من يده ، وهرع إلى الخيمة ليذود عن حريمه ، فوجدها سالمة ، فعلم أنها مكيدة من القوم ، فراح لينطلق إلى الفرات فحالوا بينه وبين الماء .

وثار شمر بن الجوشن لإحجام الناس عن الحسين ، فنادى فيهم :

ـ ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل !! اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم .

فحمل عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو ، وهمّ ليقوم للقتال ، فلم يقدر فنادى :

ـ واجداه وامحمداه ، وابتاه واعليا ، وأخاه واحسناه ، واغربتاه واعطشاه ، واغوثاه وقلة ناصراه ، أقتل مظلوما وجدى المصطفى ، وأذبح عطشان وأبى على المرتضى ، وأترك مهتوكا وأمى فاطمة الزهراء .

وأغمى عليه وما جرؤ أحد على الدنو منه ، فما كانوا يدرون أمات سيد الشهداء أم لا زال فيه رمق . وتحرك الحسين وغمغم :

ـ صبرا على قضائك ، لا إله سواك .

وابتدر إليه أربعون رجلا كل منهم يريد حز نحره ليفوز بجائزة ابن زياد ويبوء بخزى من الله عظيم ، وصاح عمر بن سعد:

ـ يا ويلكم ، عجلوا عليه .

فدنا منه شبث بن ربعى وبيده السيف ، ولطالما شهره مع على بن أبى طالب فى وجه بنى أميه ، ولكنه اليوم يشهره ليحز

نحر شهيد كربلاء ، فرمقه الحسين بطرفه ، فأطرق شبث خزيا ورمى السيف من يده ، وولى هاربا وهو يقول :

ـ ويحك يا بن سعد ، تريد أن تكون بريئا من قتل الحسين واهراق دمه ، معاذ الله أن ألقى الله بدمك يا حسين .

وقابله سنان بن سنان أنس وهو يفر وقد بان فى وجهه الندامة والخزى فصاح به :

ـ ثكلتك أمك وعدمك قومك ، لم رجعت عن قتله ؟

ـ يا ويلك ، أنه فتح عينيه فى وجهى فأشبهتا عينى رسول الله ، فاستحييت أن أقتل شبيها لرسول الله .

ـ يا ويلك ، إعطنى السيف فأنا أحق منك بقتله .

وذهب سنان إليه واجتز رأسه ، فسالت دماء الحسين زكية لتزلزل ملك بنى أمية وتقوض أركانه ، فقد كان الحسين ميتا أخطر منه حيا .

وسلب الحسين ما كان عليه فأخذت سراويله وقطيفته ونعلاه، ومال الناس على الإبل والخيل وانتهبوها ، وانطلق فرس الحسين يطلب الخيمة وصهل ، فلما سمعت زينب ، أقبلت على سكينة وقالت :

ـ قد جاء أبوك بالماء .

فخرجت سكينة فرحة بذكر أبيها ، فرأت الجواد عاريا والسرج خاليا من راكبه ، فنظرت فرأت أباها الحبيب مجدلا رأسه بأرض وجثته بأخرى ، فهتكت خمارها ونادت :

ـ واأبتاه ، واحسيناه ، واقتيلاه ، واغربتاه ، وابعد سفراه واطول كرباه ، هذا الحسين بالعرى ، مسلوب العمامة والردا .

فلما سمع باقى الحريم قولها خرجن ينظرن ، فرأين ما يفتت الأكباد ، ويذيب النفوس ، ويقطع نياط القلوب ، فجعلن يلطمن الخدود ، ويشققن الجيوب ، وصاحت أم كلثوم :

ـ اليوم مات محمد المصطفى ، اليوم مات على المرتضى ، اليوم ماتت فاطمة الزهراء .

وتبادر الرجال إلى نهب النساء ، فدخلوا الخيمة فأخذوا ما كان فيها وأخذوا القناع من رأس زينب ، ونظر رجل إلى على بن الحسين وهو على نطع من الأديم ، وكان مريضا ، فجذب النطع من تحته ورماه إلى الأرض ، وجاء شمر بن ذى الجوشن فرأى على بن الحسين وهو مريض ، فقال :

ـ ألا نقتل هذا ؟

فقال رجل أخذته رقة :

ـ سبحان الله ، أنقتل الصبيان ؟ إنما هذا صبى .

وجاء عمر بن سعد فقال :

ـ ألا لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ، ولا يعرضن لهذا الغلام المريض ، ومن أخذ من متاعهن شيئا فليرده عليهن .

فما رد أحد شيئا . وخرجت زينب فلما مرت بأخيها الحسين صريعا صاحت :

ـ يا محمداه يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مرمل بالدما ، مقطع الأعضاء ، يامحمداه ، وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا .

ـ ٢٦ ـ

وسرح برأس الحسين خولى بن يزيد إلى عبيد الله ، فأقبل به خولى فأراد القصر ، فوجد باب القصر مغلقا ، فأتى منزله فوضعه تحت إجانة فى الدار ، ثم دخل البيت ، فأوى إلى فراشه فقالت له زوجته :

ـ ما الخبر ؟ ما عندك ؟

ـ جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس الحسين معك فى الدار .

فقالت المرأة فى غضب :

ـ ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ ؟ ! والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا .

وأذن عمر بن سعد بالرحيل ، فساروا بالسبايا وعلى بن الحسين على الجمال بغير غطاء ولا وطاء ، وتركوا الشهداء مطروحين بأرض كربلاء ، أرض سالت بها أزكى دماء ، فى سبيل نصرة الحق ، وانطلقوا حتى خلفوا وراءهم كل نفس أبية ، لا تقبل أن تنام على ضيم ، أو تخضع لجبروت الظلم والطغيان .

وحملت الرءوس على الرماح ، ودخل الركب الكوفة ، فلما رأت النساء بنات رسول الله سبايا ، شققن الجيوب ، ولطمن الخدود ، واقترب أهل الكوفة من أهل البيت وصاروا يطعمون الأطفال بعض الثمر والجوز فصاحت أم كلثوم وقالت :

ـ يا أهل الكوفة ، الصدقة علينا حرام .

وجعلت تأخذ من أيدى الأطفال وترمى به ، فضج الناس بالبكاء والنحيب .

فقالت أم كلثوم :

ـ تقتلنا رجالكم ، وتبكينا نساؤكم ، لقد تعديتم علينا عدوانا وظلما عظيما ، وجئتم شيئا فريا ، تكاد السماوات يتفطرن ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .

وارتفعت صيحة عظيمة ، فالتفت أهل البيت فإذا برأس الحسين منصوب على رمح ، فانهمرت الدموع ، وارتفع النشيج والنحيب حتى لكادت الأكباد تنفلق من البكاء ، وران حزن عميق، وعطلت الأسواق وخرج الناس ينظرون ، وخفقت رايات عمر ابن سعد ، وتطلع الناس إلى ذرية رسول الله ، فنادت أم كلثوم .

ـ يا أهل الكوفة ، غضوا أبصاركم عنا ، أما تستحون من

الله ورسوله أن تنظروا إلى حرم رسول الله وهن حواسر .

فامتلأت العيون بالدموع ، وانقبضت القلوب ، ومالت إلى أهل البيت النفوس ، وتحركت الأحقاد ونبت المقت فى الصدور ، وسيترعرع ذلك المقت على كر الأيام ليزيل ملك آل أبى سفيان .

وجلس ابن زياد للناس ، وقد وفد الوفد عليه فأدخلهم وأذن للناس ، وجىء برأس الحسين فوضع بين يديه ، وراح ينكت بقضيب بين ثنيتيه ، وكان عنده زيد بن أرقم ، فأحس يدا قوية تعصر قلبه ، ولم يستطع أن يكبت ما يعانيه من حزن ، فصاح بابن زياد :

ــ اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما .

وإنفجر الشيخ باكيا ، فقال له ابن زياد فى غضب :

ــ أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

فقام زيد غضبا ، وخرج فرأى الناس فقال لهم :

ــ ملك عبد عبدا ، فاتخذهم تلدا ، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذل ، فبعدا لمن رضى بالذل .

ودخل صبيان الحسين وأخواته ونساؤه على عبيد الله بن زياد، ولبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها ، وتنكرت وحف بها اماؤها ، ووقفوا بين يديه فقال على بن الحسين :

ــ سيقف وتقفون ، ونسأل وتسألون ، وأنتم لا تردون لرسول الله جوابا .

فسكت ابن زياد ولم يجبه ، ثم أقبل على النساء وقال :

ـ من هذه ؟

فلم تجبه ، فقال :

ـ من هذه ؟

فقال بعض امائها :

ـ هذه زينب بنت فاطمة .

ـ يا زينب بحق جدك كلمينى .

ـ ما تريد منه يا عدو الله ورسوله ؟ لقد هتكتنا بين البر والفاجر .

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم .

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ ، وطهرنا تطهيرا لا كما تقول أنت ، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

ـ فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

ـ كتب عليهم القتال فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتخاصمون عنده . فغضب ابن زياد واستشاط ، فقال له رجل عنده :

ـ أصلح الله الأمير ، إنما هى امرأة وهل تؤخذ المرأة بشىء من منطقها ، إنها لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطل .

فقال لها ابن زياد :

ـ قد أشفى الله نفسى من طاغيتك والعصاه المردة من أهل بيتك .

فبكت ثم قالت :

ـ لعمرى لقد قتلت كهلى ، وأبرت أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت أصلى ، فإن يشفك هذا قد اشتفيت .

ـ هذه شجاعة ، قد لعمرى كان أبوك شاعرا شجاعا .

ـ ما للمرأة وللشجاعة ، إن لى عن الشجاعة لشغلا ، ولكنى نفثنى ما أقول .

فغار على زين العابدين على عمته وقا ل :

ـ يا بن زياد ، إلى كم تهتك عمتى وتعرفها لمن لا يعرفها ! .

فغضب ابن زياد لكلامه وقال فى حدة :

ـ ما اسمك ؟ .

ـ أنا على بن الحسين .

ـ أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟

فسكت ، فقال له ابن زياد :

ـ مالك لا تتكلم ؟

ـ قد كان لى أخ يقال له أيضا على فقتله الناس .

ـ إن الله قد قتله .

فسكت على ، فقال له

ـ مالك لا تتكلم ؟

ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فقال ابن زياد فى ثورة :

ـ أنت والله منهم . اقتله .

فقال على بن الحسين :

ـ من توكل بهؤلاء النسوة ؟ !

وتعلقت به زينب عمته ، فقالت :

ـ يا بن زياد حسبك منا ، أما رويت من دمائنا ، وهل أبقيت منا أحدا ؟؟

فاعتنقته فقالت :

ـ أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه .

ونادى على بن الحسين :

ـ يا بن زياد إن كان بينك و بينهن قرابة ، فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الإسلام .

فنظر إلى زينب وهى معتنقة على ابن أخيها فقال :

ـ عجبا للرحم ، والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه ، دعوا الغلام ، انطلق مع نسائك .

ونودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم ، فصعد المنبر ابن زياد فقال :

ـ الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته .

فوثب عبد الله بن عفيف ، وكان من شيعة على كرم الله وجهه ، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة وأخرى على حاجبه فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يفارق المسجد ، فلما سمع مقالة ابن زياد صاح :

ـ يا بن مرجانة أنت الكذاب ابن الكذاب ، أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، يا بن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين ، وتتكلمون بكلام الصديقين ؟

فقال ابن يزيد :

ـ على به .

فأحاط رجال ابن زياد به ، فوثب إليه فتية من أهله فانتزعوه فأتوا به منزله . وظل ابن زياد يذكر مقال ابن عفيف، فلما جن الليل بعث ابن زياد رجالا ليأتوه براسه ، فانطلقوا حتى أحاطوا بداره ، فلما سمعت ابنته صهيل الخيل قالت :

ـ يا أبتاه ، إن الأعداء قد هجموا عليك .

ـ ناولينى سيفى ، وقفى فى مكانك ولكن قولى لى القوم عن يمينك وشمالك خلفك وأمامك .

ثم وقف لهم فى مضيق وجعل يضرب يمينا ووشمالا ، وتكاثروا عليه وأخذوه أسيرا إلى ابن زياد ، فلما نظرإليه قال :

ـ الحمد لله الذى أعمى عينيك .

فقال له عبد الله بن عفيف :

ـ الحمد لله الذى أعمى قلبك .

ـ قتلنى الله إن لم أقتلك شر قتلة .

ـ قد ذهبت عيناى يوم صفين مع أمير المؤمنين ، وقد سألت الله أن يرزقنى الشهادة على يد أشر الناس ، وما علمت على وجه الإرض شرا منك .

وقتل عبد الله بن عفيف وصلب ، وتأهب ابن زياد ليبعث بالسبايا ورأس سيد الشهداء إلى الشام ، وهو يحسب أنه قد انتهى من أمر الحسين ، وما دار بخلده قط أن خطر الحسين قد اشتد بعد أن أهريقت أطيب دماء تروى أرض كربلاء .

ـ ٢٧ ـ

دخلت أم سلمة أم المؤمنين فراشها ، وما أغمضت عينيها واخذها النوم حتى هبت فزعة مرعوبة ، وقبل أن تملك روعها صاحت :

ـ واحسيناه !. واحسيناه !

فجعل الناس يهرعون إليها وقد بان فى وجوههم الدهشة وقالوا :

ـ يا أم المؤمنين ما الخبر ؟

ـ قتل ولدى الحسين .

ـ وكيف ذلك وأنت فى المدينة والحسين فى الكوفة ؟ ومن أخبرك بذلك ؟ ..

فقالت ودمعها يسيل على خديها :

ـ رأيت رسول الله وعلى رأسه ولحيته التراب : فقلت : يا

رسول الله ــ جعلت فداك ــ ما هذا التراب الذى أراه على رأسك ولحيتك ؟ ، قال : يا أم سلمة الآن رجعت من دفن ولدى الحسين .

فشعر الناس بغصة ، وبجفاف فى حلوقهم ، وجرت عبراتهم، وطأطأوا رءوسهم ، ثم انطلقوا إلى قبر الرسول يعزونه بقتل الحسين ، ودمعهم جار وحزنهم ثقيل .

ومرت الأيام وقدم رسول ابن زياد إلى المدينة فلقيه رجل من قريش فقال :

ــ ما الخبر ؟

ــ الخبر عند الأمير .

ــ إنا لله وإنا اليه راجعون ، قتل الحسين بن على .

ودخل الرسول على عمرو بن سعيد بن العاص فقال عمرو:

ــ ما وراءك ؟

ــ ما سر الأمير ، قتل الحسين بن على .

ــ ناد بقتله .

فخرج الرسول ينادى بقتله ، فارتفعت أصوات نساء بنى هاشم بالبكاء والنوح ، فقال عمرو بن سعيد فى شماتة :

ــ هذا ببكاء نساء عثمان بن عفان .

وأقبلت صارخة حتى انتهت إلى أم سلمة ، فقالت :

ــ قتل بالحسين .

فنزل الخبر على أم سلمة نزول الصاعقة ، فقالت :

ــ ملأ الله بيوتهم عليهم نارا .

ووقعت مغشيا عليها .

وبلغ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مقتل ابنيه مع الحسين، فدخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال :

ــ هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين .

فحذفه عبد بالله بن جعفر بنعله ثم قال :

ـ يا بن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه ، والله إنه لمما يسخى بنفسى عنهما ويهون على المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخى وابن عمى مواسيين له صابرين معه .

ثم أقبل على جلسائه فقال :

ـ الحمد لله عز وجل على بمصرع الحسين إن لا يكن أست حسينا يدى ، فقد آساه ولدى .

* * *

وأقبل زجر بن قيس حتى دخل على يزيد ، فقال له يزيد :

ـ ويلك ، ما وراءك ؟ وما عندك . ؟

ـ أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، ورد علينا الحسين ابن على فى ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله ابن زياد أو القتال ، فاختاروا القتال على الاستسلام ، فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون منا بالآكام والحفر لو اذا كما لاذ الحمائم من صقر ، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر وجزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم معفرة . تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح ، زوارهم العقبان ، والرخم بقى سبسب .

ـ قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين .

ودخل ركب السبايا دمشق ، وعلى بن الحسين مغلول بغل إلى

عنقه ، ودخل شمر بن ذى الجوشن ، وقد رفع رأس الحسين على رمح ، وأقبل من بعده رأس الحر بن يزيد ، وأقبل من بعده رأس العباس بن على ، وأقبل من بعده رأس عون بن عبد الله بن جعفر، وأقبلت الرءوس على أثرهم ، وصاحت أم كلثوم :

ـ وامحمداه ، واجداه ، واعلياه ، واأبتاه ، واحسناه ، واحسيناه ، واعقيلاه ، واعباساه ، وابعد سفراه ، واسوء صباحاه .

واقترب الناس ينظرون إلى النساء ، واقترب رجل من محبى آل على من على بن الحسين وقال له :

ـ هل لك من حاجة ؟

ـ هل عندك من الدراهم شىء ؟

ـ ألف دينار وألف ورقة .

ـ خذ منها شيئا وأدفعه إلى حامل الرأس وأمره أن يبعده عن النساء حتى تشغل الناس بالنظر إليه عن النساء .

وأدخلت رءوس الشهداء على يزيد ، ومروان بن الحكم عنده، فلمارأى الحسين هز أعطافه طربا ، وراح يقول :

شفيت قلبى من دم الحسين أخذت ثأرى وقضيت دينى

ونسى مروان أن الحسين كلم أباه يوم الجمل ليعفو عنه ، ولا غرو فقد كان الحسين كريما ، وكان مروان ينضح بخبث نفسه ولؤم طويته ، فراح ينفس عن أحقاد السنين والحسد المكبوت .

وقال يحيى بن الحكم ، أخو مروان :

لهام بجنب الطف أدنى قرا

من ابن زياد العبد زى الحسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

فضربه يزيد بن معاوية فى صدره وقال له :

ـ اسكت .

ونظر يزيد إلى رأس الحسين ثم التفت إلى من عنده وقال :

ـ أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال أبى على خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر منه .. فأما قوله أبوه خير من أبى فقد حاج أبى أباه وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما قوله أمى خير من أمه ، فلعمرى فاطمة ابنة رسول الله ﷺ خير من أمى ، وأما قوله جدى خير من جده ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير)

ودعا بعلى بن الحسن وصبيان الحسين ونسائه فأدخلوا عليه ، فالتفت يزيد إلى على فقال :

ـ يا على ، أبوك الذى قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت .

فقال على :

ـ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور .

فغضب يزيد وجعل يعبث فى لحيته وقال لابنه خالد :

ـ أردد عليه .

فما درى خالد ما يرد عليه ، فقال له يزيد :

ـ قل : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير .

وصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن لما رأين

بنات رسول الله في هيئة قبيحة ، وقالت فاطمة بنت الحسين :

ـ أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ !

فغامت عينا ه بالدمع ، وقام رجل من أهل الشام إلى فاطمة وقد أعجبه حسنها وقال :

ـ يا أمير المؤمنين هب لي هذه .

فأرعدت فاطمة وفرقت ، وأخذت بثياب زينب ، فصاحت زينب

ـ كذبت والله ولؤمت ، ما ذلك لك وله .

فغضب يزيد وقال :

ـ كذبت والله إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت .

ـ كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا ،

ـ إياي تستقبلين بهذا ؟ ! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

ـ بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك .

ـ كذبت يا عدوة الله .

ـ أنت أمير تشتم ظلما وتقهر بسلطانك .

فاستحيى يزيد فسكت ، ثم التفت إلى من عنده وقال :

ـ يا أهل الشام ، ما ترون في هؤلاء ؟

فقال النعمان بن بشير :

ـ يا أمير المؤمنين ، اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله لو رآهم بهذه الحال .

خلوا عنهم ، وإذهبوا بهم إلى الحمام واغسلوهم واضربوا عليهم القباب .

ودخلن دار يزيد فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن

تبكى وتنوح على الحسين ، ووضعت سكينة رأسها لتنام ، وراحت مشاهد الفاجعة تمر فى خيالها فتحس أسى عميقا ، وفكرت فيما كانت تفعله جدتها فاطمة لو أنها شهدت مصرع الحسين ، فترقرق الدمع فى مآقيها ، ونامت وهى حزينة ، فرأت امرأة ناشرة شعرها ، قد صبغت أثوابها بالسواد ، وبين يديها قميص مضمخ بالدماء ، ولم تتبين ملامح الوجه ، ولكنها أحست أنها أمام جدتها الزهراء ، فمشت إليها وقالت لها :

ــ يا جدتاه ، قتل والله أبى ، وأيتمت على صغر سنى .

فضمتها إليها فى حنان وقالت ودمعها لا يرقأ :

ــ يعز والله على ذلك .... يا سكينة ، من غسل ابنى ؟ من كفنه ؟ من صلى عليه ؟ من جهزه ، من نادت : وا ولداه ، واثمرة فؤاداه .

فهبت سكينة من نومها كأنما طعن قلبها سكين حاد ، وجعلت تنشج وتنوح وتصيح :

ــ وا أبتاه ، واحسيناه .

ــ ٢٨ ــ

اجتمع الناس فى مسجد دمشق ، وجلس على بن الحسين بالقرب من يزيد ، فارتقى رجل المنبر وجعل يسب الحسين ، فقام على زين العابدين ، وسار إلى المنبر والتفت إلى الرجل وقال :

ــ بالله عليك ألا ما أذنت لى أن أصعد المنبر ، وأتكلم بكلام فيه رضى الله ورسوله .

ــ اصعد وقل ما بدا لك .

فصعد المنبر ، وتكلم بعذوبة لسان وفصاحة وبلاغة فأعاره الناس أسماعهم فقال :

ـ أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، أنا ابن من حج ولبى ، أنا ابن من طاف وسعى ، أنا ابن زمزم والصفا ، أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن العطشان حتى قضى ، أنا ابن من منعوه من الماء وأحلوه على سائر الورى ، أنا ابن محمد المصطفى ، أنا ابن من راحت أنصاره تحت الثرى ، أنا ابن من غدت حريمه أسرى ، أنا ابن من ذبحت أطفاله من غير سوء . أنا ابن من أضرم الأعداء فى خيمته لظى ، أنا ابن من أضحى صريعا بالعرا ، أنا ابن من لا له غسل ولا كفن يرى .

وضج الناس بالبكاء والنحيب وعلت الأصوات ، فخاف يزيد أن تكون فتنة ، فأمر المؤذن أن يقطع عليه خطبته ، فصعد المؤذن فقال :

ـ الله أكبر .

فقال على بن الحسين :

ـ كبرت كبيرا وعظمت عظيما وقلت حقا .

ـ أشهد أن لا إله إلا الله .

ـ أشهد بها مع كل شاهد .

ـ أشهد أن محمدا رسول الله .

فبكى على وقال :

ـ يا يزيد ، سألتك بالله محمد جدى أم جدك .

ـ جدك .

ـ فلم قتلت أهل بيته ؟

فأفحم يزيد وقام وقد ظهر عليه الغضب والضيق ، ودخل داره .

فقام رجل إلى على زين العابدين وقال له :

ـ كيف أصبحت يا بن رسول الله ؟

ـ كيف حال من أصبح وقد قتل أبوه ، وقل ناصره وينظر إلى حرم من حوله أسارى ، قد فقدوا الستر والغطاء وقد أعدموا الكافل والحمى ، فهل ترانى إلا أسيرا ذليلا قد عدمت الناصر والكفيل ، قد كسيت أنا وأهل بيتى ثياب الأسى ، فإن تسأل فها أنا كما ترى قد شمتت فينا الأعداء .

قد أصبحت العرب تفتخر على العجم بأن محمدا منهم ، وأصبحت قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منهم ، ونحن أهل بيته أصبحنا مقتولين مظلومين ، قد حلت بنا الرزايا ، نساق سبايا ، ونجلب هدايا ، كأن حسبنا من أسقط الحسب ، ومنتسبنا من أرذل النسب ، كأن لم نكن على هام المجد رقينا .

وخشى أعوان يزيد أن تكون فتن فعجلوا بالصلاة ، وبعث يزيد إلى من سمح لعلى بن الحسين لارتقاء المنبر وقال له فى ثورة :

ـ ويحك ، أردت بصعوده زوال ملكى ؟!

ـ والله ما علمت أن هذا الغلام يتكلم بمثل هذا الكلام .

ـ أما علمت أن هذا من أهل بيت النبوة ؟

فأطرق الرجل ، وإن كانت تجيش فى صدره رغبة أن يسأله: إن كان كذلك فلم قتل أباه .

وآن أوان الغداء ، فدعا يزيد على بن الحسين اليه ، ودعا عمرو بن الحسن بن على وهو غلام صغير ، وجلس عمرو بجوار خالد بن يزيد ، فرمقهما يزيد وهما متجاوران فخطر له خاطر ، فمن يدرى فقد يقتتلان غدا على الملك والسلطان ، والتفت يزيد إلى عمرو وقال :

ـ أتقاتل هذا الفتى ؟

فقال عمرو بن الحسين الذى سمع قعقعة السلاح ، وعاين الطعن والنزال :

ـ لا ، ولكن أعطنى سكينا واعطه سكينا ثم أقاتله .

فقال يزيد وهو يبتسم :

ـ شنشنة أعرفها من أخزم ، هل تلد الحية إلا حية ؟

وظلمه يزيد ولو أنصفه لقال : ذرية بعضها من بعض ، فقد كان عمرو بن الحسن حفيد فارس الإسلام الذى غذى أبناءه بالحق ووهبهم للموت .

وأمر يزيد نعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ، وأن يبعث معهم رجلا من أهل الشام أمينا صالحا فيسير بهم إلى المدينة ، وتجهزوا للخروج ، فدعا يزيد على بن الحسين ثم قال :

ـ لعن الله ابن مرجانة ، أما والله إنى صاحبه ما سألنى خصلة أبدا إلا أعطيتها إياه ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن الله قضى ما رأيت .

وخرج صبيان الحسين ونساؤه وأهل بيته من دمشق قاصدين مدينة جدهم العظيم ، وراح رسول يزيد يسايرهم بالليل فيكونون أمامه لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، وجعل يسألهم عن حوائجهم ويلاطفهم .

وبانت أرباض يثرب ، فبعث على بن الحسين رسولا إلى أهل المدينة ، فركب فرسه وركض حتى بلغ مسجد رسول الله فنادى:

ـ يا أهل المدينة ، هذا على بن الحسين وإخوته وعماته قد نزلوا بساحتكم ، وأنا رسوله إليكم .

فخرج الناس من دورهم وقد لبسوا السواد ، وقد لاح فى محياهم أعمق الحزن ، وران على المدينة وجوم ، فقد كان اليوم أشبه بيوم مات رسول الله ﷺ .

وقالت فاطمة بنت على لأختها زينب :

ـ يا أخية ، لقد أحسن هذا الرجل الشامى إلينا فى

صحبتنا، فهل نصله ؟

ـ والله ما معنا شيء نصله به إلا حلينا .

ـ فنعطيه حلينا .

فبعثتا بحليهما إليه وقالتا له :

ـ هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحسن من الفعل .

فرد الرجل شاكرا وقال :

ـ لو كان الذى صنعت إنما هو للدنيا كان فى حليكن ما يرضينى ودونه ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورأى نساء أهل البيت خروج أهل المدينة اليهن فى سواد فصرخت زينب وأم كلثوم وباقى النساء ، وارتفع العويل والصياح ، وكثر النواح والبكاء ، وهتف أكثر من صوت :

ـ واحسيناه ! واحبيباه !

وما صك أصوات العويل آذان بنت عقيل بن أبى طالب ، وأم هانىء ورملة وأسماء بنات على حتى خرجن يندبن الحسين ، وصاحت بنت عقيل :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم

ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى

منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

وانطلق الركب حتى أناخ بباب مسجد الرسول ، فدخل الناس وفى القلب حسرة ، وفى النفس لوعة ، ووقفت أم كلثوم أمام قبر النبى تبكى وتقول :

ـ السلام عليك يا جداه ، إنى ناعية اليك ولدك الحسين .

للمـؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

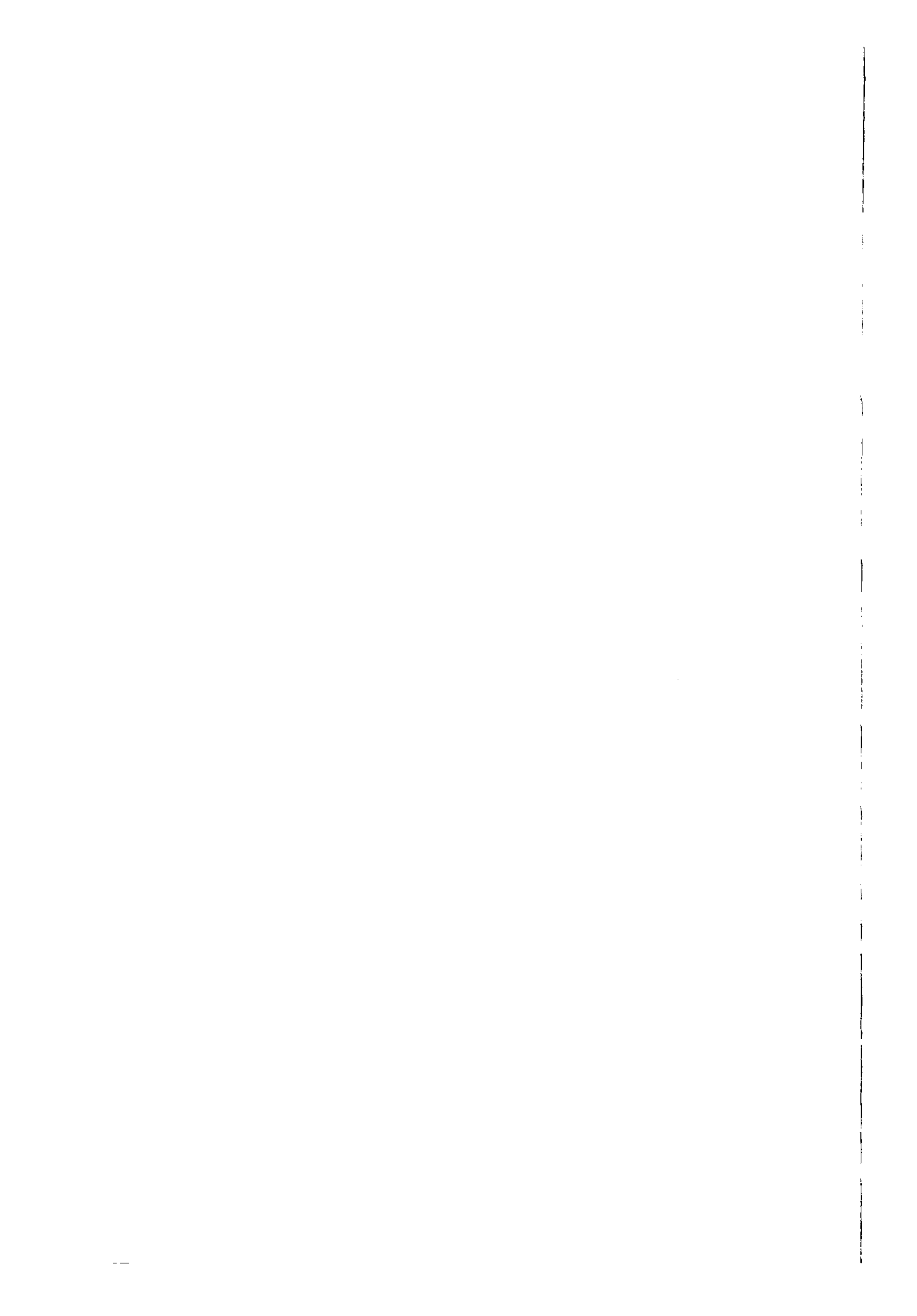
محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

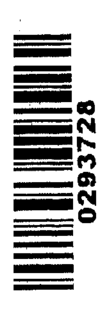
فى عشرين جزءا

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الايداع ٥١٥٢
الترقيم الدولى ٣ — ٧٩، — ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٥٠

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه